

هيثم مناع



التوتاليتارية المقدسة

التوتاليتارية المقدسة

هيثم مناع

Haytham Manna

Le totalitarisme sacré

المعهد الإسكندنافي لحقوق الإنسان / مؤسسة هيثم مناع

جنيف - سويسرا

L'Institut Scandinave pour les Droits de l'Homme/ FHM

Case Postale 128 - 1211 Genève 20

<http://sihr.fr/>

Email : sihr.geneva@gmail.com

الطبعة الورقية: منشورات زمكان-بيروت

نَشَرْتُ في 1984 في مجلة "النقطة" في باريس مقالة بعنوان: "توتاليتارية، إسهام في نقد الإيديولوجيا الإسلامية". وبعكس ما توقعت، جاء النقد والهجوم على بعض مواد المقال وأحياناً، وصفها بالكفر، في حين لم يعترض أحد على فكرة "التوتاليتارية"¹ التي انتقدتُ بها، الكتابات الإسلامية المنتشرة منذ أبو الأعلى المودودي، أول من وصف النظام الإسلامي بالتوتاليتاري إلى سيد قطب والقرضاوي ومن تبعه من الإخوان والسلفيين ...

والحقيقة أن المنهج "الشمولي" في الفقهاء السني والشيعة قد بنيت مقوماته منذ قرون. ويمكن ملاحظة ذلك بشكل واضح مثلاً في غزارة التجميع التي قام بها ابن تيمية وابن القيم الجوزية اللذان لم يتركا مجالاً في الفقه والعلوم والآداب، أو تياراً في الفلسفة أو الفكر أو رأياً في الطب أو النفس أو الاجتماع إلا وتدخل به نقداً وتشويهاً وتهشيماً، بحيث يتساءل العارف بالقرآن الكريم والحديث والأثر: عن ماذا يتحدث النبي محمد عندما يقول: "إذا كان شيءٌ من أمرٍ

¹ لم يكن كتاب حنه أرندت "في أصول التوتاليتارية" قد عُرف بشكل جيد في الأوساط الثقافية الناطقة بالعربية (ترجمه أنطوان أبو زيد للعربية بعنوان "أسس التوتاليتارية" وصدر عن دار الساقي في 1993).

دنياكم فأنتم أعلمُ به؟" وما قصده عندما قال: "أنتم أعلمُ بأمور دنياكم" ؟ إن كان ابن القيم غير الطبيب، قد حرّر "الطب النبوي" للناس، أما ابن تيمية فقد كَفَّر وأحل دم كل من خالف "فرقته الناجية"!!

من قراءة عشرات الآراء والمواقف والكتب التي تتناول الشمولية في الشريعة الإسلامية، نستخلص تعريفا مشتركا مأخوذا من موقع "الألوكة" وموقع "إسلام ويب" وموقع الشيخ يوسف القرضاوي، وتتقاسمه سلفية ما قبل الصحوات والصحوات، وصولا للسلفية الجهادية:

"الشمولية في الشريعة الإسلامية هي استيعاب الأحكام الإلهية لجميع مناحي الحياة، وتنظيمها لشؤون الخلق الدنيوية والأخروية دون استثناء. تعني هذه الخاصية أن الإسلام ليس مجرد طقوس تعبدية منزوية، بل هو منهج متكامل يجمع بين العقيدة، والتشريع، والأخلاق، والمعاملات." أي أن أبعاد الشمولية في التشريع الإسلامي تتال الوجود ومكانة الإنسان في هذا الوجود وطريقة عيشه وأزلية التصور الديني الخاص بهذا الوجود فهي:

"شمولية الزمان: تمتد أحكام الشريعة لتغطي حياة البشرية منذ بعثة النبي محمد وحتى قيام الساعة، دون حاجة لتشريع ديني جديد.

شمولية المكان: تصلح هذه الأحكام للتطبيق في جميع الأقطار والبيئات الجغرافية، متجاوزة الحدود القومية والإقليمية.

شمولية الإنسان: تخاطب الشريعة الكيان البشري بكافة أطواره (من الطفولة إلى الشيخوخة)، وتلبي احتياجات روحه، وعقله، وجسده بالتوازن.

شمولية مجالات الحياة: تنظم الشريعة النظام التعبدى والسلوكى، تعريف المسلم لمن يحيط به وطريقة التعامل معه، رهن المفهوم الأخلاقي والقانوني للعلاقات بين البشرية بالمعتقد، إقامة نظام جنائي وقضائي يشرع الحدود والقصاص لحماية الضروريات الخمس (الدين، النفس، العقل، العرض، والمال)، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين".

يستحضر سفر الحوالي وغيره مفهوم الشمولية السيادية عبر تأصيل فكرة العبودية منذ ابن تيمية في رسالته العبودية: لَشَيْخ

الإسلام ابن تيمية رسالة قيمة عنوانها العبودية ذكر فيها هذا الأمر، وذكر ما هو أشمل منه؛ فكل مخلوق لابد وأن يكون عبداً، فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد غير الله، إما أن يوالي في الله فيحب إخوانه المؤمنين ويكره أعداءه الكافرين، وإما أن يوالي في غير الله، فيحب أعداء الدين ويكره المؤمنين، ولا يمكن أن يخرج الإنسان عن ذلك؛ لأنه كادح، وهذا الكدح لا بد أن يكون لغرض، ولا بد أن يكون وراء الكدح هدفاً معيناً، وهذا الهدف به تتحدد نوعية العبودية، فإذا كانت العبودية بهذا الشكل؛ فإننا نعرف لماذا كانت العبادة في الإسلام عامة وشاملة؟ في كل النشاط (الكدح) البشري ككل.

فالعبادة تحتويه وتحتضنه؛ فإما أن يكون في طاعة الله (من الواجبات أو من النوافل أو من المستحبات) وإما أن يكون في ضد ذلك من المنهيات أو من المكروهات، وإما أن يكون في درجة المباح، والمباح إن كان وسيلة للطاعة... التحق بالطاعة، وإن كان وسيلة للمعصية... التحق بالمعصية.²

² <https://www.safaralhawali.com/main/2841-3-1-%D8%B4%D9%85%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D8%A9.html>

من أجمل ما كتب في الرد على هذه المقاربة المتحجرة، كان للفقيه الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه "نقد الخطاب الديني"، يقول: "إن اختزال دور الإسلام ومقصده الكلي في تحرير الإنسان من العبودية لغيره من البشر لكي يرده إلى عبودية من نمط آخر هو التزييف بعينه. لأنه مقصد شكلي ما دام يسلمه إلى عبودية كهنة النصوص، هذا فضلا عن أنه تزييف يجمد النصوص كما يجمد الواقع، بإلغاء حقائق التاريخ واللغة ومحاربة العقل الذي حرره الوحي. وليس غريبا بعد ذلك كله أن يتعلم أبناؤنا في المدارس أن الإسلام يبيح امتلاك الجواري ومعاشرتهن معاشرة جنسية، وأن هذه الطرائق في العلاقة بالنساء إلى جانب طريقة الزواج الشرعي، ما دام ذلك قد وردت به النصوص، وليس غريبا أيضا في ظل عبودية النصوص أن يتعلموا أن المواطن المسيحي مواطن من الدرجة الثانية يجب أن يحسن المسلم معاملته، وهكذا يتوجه الخطاب الديني التعليمي التربوي إلى أبنائنا منبها أن عليهم في معاملة زملائهم وأساتذتهم من الأقباط "الرفق بهم وعدم تكليفهم فوق ما يطيقون" (كتاب التربية الدينية الصف الثاني الثانوي والثالث الثانوي)، وليس بعيدا أن يطلع علينا مجتهد من مجتهدي هذا

الزمان ومجديده بفتوى تحرم ما أخلته النصوص من طعام أهل
الكتاب...³

من الضروري التذكير بأن الثورة الفكرية في عصر التنوير
الأوربي، قامت بالأساس على تعريف التنوير Aufklärung، كما
يقول عمانوئيل كانت، بالقول: نهاية "عصر الإنسان القاصر":

"التنوير هو خروج الإنسان من حالة عدم النضج التي فرضها على
نفسه. عدم النضج هو العجز عن استخدام الفهم دون توجيه من
الآخرين. يكون عدم النضج هذا مفروضًا على الذات عندما لا
يكن سببه في نقص الفهم، بل في نقص العزيمة والشجاعة
لاستخدامه دون توجيه من الآخرين. "اعرف الشجاعة! تحلّ
بالشجاعة لاستخلاص فهمك الخاص!" - هذا هو شعار التنوير⁴.
بالنسبة للسلفيين ومن يشاطرهم الرأي، العبودية، وعبودية الإنسان
وقصوره وجودية، أزلية وقدرية، من المهد إلى اللحد، ومن بدء
الخليقة إلى يوم القيامة. وهي إن لم تكن لله، بالوكالة، فهي

³ نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، القاهرة، طبعة ثانية، 1994،

ص 134.

⁴ An Answer to the Question: What is Enlightenment? IMMANUEL
KANT (1784) Translated by Ted Humphrey Hackett Publishing, 1992.

للطواغيت. لا تضعنا فكرة "العبودية" في مواجهة مع استقلال الذات الإنسانية، أي الحق الكامل في التأمل والتفكير والعمل بحرية فقط⁵، بل في مواجهة حدية مع فكرة تكريم الإنسان في القرآن الكريم، باعتبار هذا التكريم معطى إلهيا وليس رأيا لهذا الفقيه أو ذاك السفية.

أهداني الدكتور يوسف القرضاوي كتابه "الدين والسياسية" في 2011 مع جملة: "إلى الأخ المفكر الكبير الدكتور هيثم مناع ... مع خالص حبي ودعائي". كنت قد خضت على موقع الجزيرة نت⁶ مواجهة مفتوحة معه في أيلول 2008 في مقالة "الاستعصاء المذهبي"، طلب مني أكثر من مقرب من الشيخ القرضاوي سحب المقالة فرفضت، فكتب الشيخ راشد الغنوشي ردا بعنوان: "كلنا يوسف القرضاوي". لم تكن مناظرتي شخصية بحال بل فيها رد على أطروحات مذهبية وشمولية للشيخ، بعضها جاء في كتاب

⁵ ذكرت عبارة "أفلا تعقلون" في القرآن الكريم 13 مرة بصيغة الخطاب، بالإضافة إلى

موضع واحد جاء بصيغة الغائب "أفلا يعقلون" في سورة يس، ليصبح المجموع 14 موضعاً.

"الدين والسياسة". بادئ الأمر، حين جعل الشمولية ظاهرة عالمية تشمل كل المدارس الفكرية بالقول: "كل الفلسفات والمذاهب الثورية أو (الإيديولوجيات) الانقلابية في التاريخ وفي عصرنا ذات طابع كلي شمولي، ولهذا ترفض تجزئة الحياة، وتأبى أن تسيطر على جزء منها دون جزء، بل لا بد أن تقودها كلها، وتوجهها جميعا وفقا لفلسفتها، ونظرتها الكلية للوجود والمعرفة والقيم، ولله والكون والإنسان والتاريخ"⁷.

ثم عبر التأكيد والتشديد لمرات عديدة في الكتاب، على "شمول الإسلام" وحكم الشريعة على جميع أفعال المكلفين، "فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة (الوجوب، أو الاستحباب أو الحرمة، أو الكراهية أو الإجازة). كما قرر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى الملة"⁸... "يعتبر الإسلاميون على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم أن الإسلام: عقيدة وشرعة، عبادة ومعاملة، دين وسياسة، دعوة ودولة."⁹

⁷ الدكتور يوسف القرضاوي، الدين والسياسة، المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، دبلن، 2007، ص 56-57.

⁸ نفس المصدر، ص 54.

⁹ نفس المصدر ص 114.

لاحظت أنه وضع ورقة بيضاء في الصفحة 184 من الكتاب التي تبدأ بعنوان: سيادة الروح العلمية. تتناول ما أعاب على الصحوة الإسلامية من غلبة العاطفة والغوغائية على كثير من فصائلها وتغيب العقلانية والعلمية عنها. وقد أورد ما أسماه أبرز سمات الروح العلمية المطلوبة، ذكرا ثمانية:

- النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال بغض النظر عن الأشخاص (ص184) .
- احترام الاختصاصات ... فللدين أهله، وللاقتصاد أهله، والعسكرية أهلها، ولكل فن رجاله... أما الذي يعرف في الدين والسياسة والفنون والشؤون الاقتصادية والعسكرية، ويفتي في كل شيء: فهو في حقيقته لا يعرف شيئا" (ص185) .
- "القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ والاستفادة منه، وتقويم تجارب الماضي تقويما عادلا، بعيدا عن النظرة (المنقبية) : التي تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد! أو النظرة (التبريرية) : التي تحاول أن تبرر كل خطأ أو انحراف". (ص185).

- "استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية، والاستفادة من تجارب الغير حتى الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها: فهو أحق الناس بها" (ص185).

- "إخضاع كل شيء - فيما عدا المسلمات الدينية والعقلية: للفحص والاختبار، والرضا بالنتائج : كانت للإنسان أو عليه". (ص185).

- "عدم التعجل في إصدار الأحكام والقرارات" .. (ص185).
- "تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة في الفقه وغيره..." (ص185).

- "أن تتكون لدى أجيالنا خاصة: (العقلية العلمية)، التي حرصت تعاليم القرآن على إنشائها وتكوينها" (ص186).

وصولاً للمطالبة بفقه جديد حث عليه القرآن من قديم.

يكفي ما جاء أعلاه على لسان الشيخ يوسف القرضاوي، برأينا، الرد على "مفهوم الشمولية عند الإسلاميين"، الذي نجده منذ "نظرية الإسلام وهديه" لأبي الأعلى المودودي إلى رباعية سيد قطب (هذا الدين، المستقبل لهذا الدين، نحو مجتمع إسلامي

ومعالم في الطريق)، ولا يخلو منه كتاب سلفي لسدنة "الهوية السنية السلفية الصافية". أو على "تهج آية الله الخميني" و كتابه "الحكومة الإسلامية".

مع ذلك، وحرصاً على تقديم ما يتناسب مع الأوضاع السياسية من حوله، ومواقف الدولة التي اعتبرته مفتياً لها، صدر عن القرضاوي متناقضات كثيرة في الرأي والإفتاء خاصة منذ عام 2011. فبعد أن أشرف على عدد هام من مبادرات تكوين الشبيبة السلمية والمدنية وكتب مجلدين في "فقه الجهاد" لتوضيح جنوحات "السلفية الجهادية"، أصدر فتوى بقتل معمر القذافي ودعم تدخل الناتو في ليبيا ثم شارك في فتوى الجهاد إلى سوريا. ومن المضحك المبكي أن يقدم تلميذه الشنقيطي، "أستاذ الأخلاق في جامعة قطر"، تفسيره لهذا التحولات السياسية بالقول: "أردناها سلمية، ولكن الله أرادها جهادا"!!!¹⁰

ليس موضوعنا في تناسب وفوضى الفتاوى والآراء هنا وهناك مع المواقف العاطفية والشعبوية عند الإسلاميين والعامة، ولكن من الضروري عند تناول موضوع الشمولية، أن نعود دائماً إلى المدرسة

¹⁰ محمد المختار الشنقيطي، من الربيع المخملي إلى المفاصلة الجهادية، الجزيرة نت،

17/5/2014

السلفية، من ابن تيمية إلى الوهابية، باعتبارها قد وضعت التخوم بين حرية الرأي والاعتقاد والتجديد، وبين الجدران المركبة التي تُخضع العقل للنقل. والتذكير دائماً بما يمكن تسميته "الأساطير المؤسسة" لتبرير العنف دون قيود أو حدود، تعبئة الأتباع، وإلغاء المحاكمات العقلانية عبر تقديس الذات وتدنيس الآخر المختلف، عبر ركائز محددة:

- أسطورة "الفرقة الناجية": الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة واحتكارها، واعتبار المخالفين في الرأي أو العقيدة كفاراً، أو خونة، أو أعداء يجب إقصاؤهم أو محاربتهم. ضمن ما يصفه ياسين الحاج صالح: *بالتكوين الفكري المغلق، بل المتحجر، لقادة هذا التيار، يجمع بين نزعة اكتفاء إسلامية في صيغة ظلامية فعلاً (ليست صيغة أن كل ما لدينا خير، بل صيغة أن كل ما هو خير لدينا)، يعكس هذا التكوين عداءات للحياة الدنيوية في العالم المعاصر، وتشوشاً حياله وخوفاً منه، ورغبة متأججة فيه، وتطلعاً إلى السيطرة عليه وامتلاكه واستهلاكه.*
- أسطورة "الاستبداد بالضحية" (المظلومية التاريخية): التسليم بوجود مؤامرة كونية مستمرة وكيد وعداء جوهري دائم لا يتبدل مما يبرر ممارسة العنف كنوع من الانتقام أو "الدفاع المشروع".

• أسطورة "الحتمية الطوباوية" (دولة على منهج الخلافة الراشدية): الترويج لوعود خيالية بالخلاص والعودة إلى "عصر ذهبي" مثالي، وإقناع الأتباع بأن الطريق الوحيد لتحقيق هذا الهدف ليس فقط تدمير النظام الحالي بالكامل وإنما التخلص من كل من يقف في وجه هذا المشروع.

أسطورة "الغاية تبرر الوسيلة": بعكس الخطاب الطهراني الظاهر والمعلن، تنتهي المقاربة الأخلاقية للتعامل مع الآخر المختلف، بمجرد تقديس الفعل الذاتي وتدنيس وتكفير تصرفات الآخر ومواقفه، أي اعتبار كل ما يقوم به الجهادي، دفاع عن الحق المطلق باعتباره الممثل له. لذا تعتمد مخيلة العسكرية والقتال والسلطة دائماً على رفض أية قوانين بشرية إنسانية تضع قواعد مشتركة في المواجهة مع الآخر (العدو)، والصياغة الذاتية لقواعد اللعبة على أساس الخير والشر، الإيمان والكفر. هكذا يجري بناء منظومة مسلكية ملتوية تجيز ارتكاب أبشع الجرائم ضد الإنسانية (إطلاق "الحق" في القتل والذبح، التفجير والتدمير والتهجير.. "مشروعية قطع وحرّ رؤوس الكفرة الفجرة الحربيين أحياء كانوا أو أمواتاً.."¹¹) تحت غطاء تحقيق أهداف مقدسة أو عليا. فالهدف يضيف الشرعية على أي عمل يُستخدم للوصول إليه، بغض

¹¹ أبو عبد الله المهاجر، مسائل من فقه الجهاد، طبعة إلكترونية، ص 277.

النظر عن النتائج أو الأضرار أساسية كانت أو جانبية. في كتابه "إدارة التوحش" يضع أبو بكر ناجي (محمد حسن خليل الحكايمه) ما يسميه "مهمات إدارة التوحش في صورتها المثالية".. نجد فيها "بث العيون واستكمال إنشاء جهاز الاستخبارات" و"تأليف قلوب أهل الدنيا بشيء من المال والدنيا" وغير ذلك من الوسائل المستخدمة من الدول السلطوية والفاصلة. نجد "البراغماتية" عينها في كتب أبو مصعب السوري وأبو عبد الله المهاجر وتلاميذهم الأحياء.

- أسطورة "حتمية صدام الحضارات": الترويج لفكرة استحالة التعايش السلمي، واعتبار أن العالم يخضع لصراع صفري دائم بين "نحن" (الأخيار) و"هم" (الأشرار). هذه الأسطورة التي نظّر وروج لها صموئيل هنتغتون، تجد أنصارها في الوسط التقليدي السلفي والجهادي منه بشكل أوضح ولكن أكثر بدائية وسماجة.

الشمولية المقدسة!!!

في التجربة الشمولية المعاصرة، وبشكل أساس الأنموذج التعبوي للنازية الألمانية والستالينية السوفيتية، يختلف النظام الشمولي عن الديكتاتورية البسيطة في أن هدفه هو ترسيخ هيمنته من أصغر

خلية في المجتمع إلى تصوره الخاص لبناء العالم. وهنا تكمن "الجاذبية الإيديولوجية" لهذا الأنموذج عند أبو الأعلى المودودي الذي وجد في التوتاليتارية ضالته في بناء الحاكمية وشمولية فهمه للإسلام والمجتمع.. "فالجموع الحزبية التي تحمل صورة ستالين وهتلر إلى كل حي وقرية كما يقول، ستحمل القرآن الكريم، كتاب الله لتحرير البشر من عبودية البشر".

بشكل عام، يُعتبر النظام السياسي شموليًا عندما يمارس سيطرته على جميع جوانب أنشطة الأشخاص، ويلغي، أو يحاول إلغاء، أي مفهوم للخصوصية. هذا ما يوافق رؤية المودودي للنظام الإسلامي الذي يلغي التعددية أو دولة مؤسسات القانون الدنيوية التي تضمن حدا أدنى من الخصوصية للأشخاص والتنظيمات الاجتماعية، في ظل تأميم السلطان السياسي للحق في فعل أي شيء وفي أي مكان. مُحدثة تحولاً جذرياً في النظام السياسي والثقافي والاقتصادي القائم، وفقاً لأيديولوجية مغلقة ذات تجانس ظاهري.

يتمحور البناء الشمولي حول بضعة مبادئ أساسية، أولها، كما سلف وذكرت، هذه الإيديولوجية الخاصة والمتميزة عما سواها، مجموعة "العقائد" الثابتة الجامدة الواجب على المجتمع بأسره الالتزام بها، وثانيها حزب واحد: يقوده عادةً زعيم ذو كاريزما أو

ديكتاتور، لا يتسامح مع أي معارضة. ما يسميه المودودي:
"الدولة دولة حزب خاص مؤمن بعقيدة خاصة وفكرة مختصة
به.. وكل إنسان يقبل بالإسلام يصلح أن يكون عضواً في الحزب
الذي أسس بنيانه لتسيير دفة هذه الدولة، وأما من لم يقبله، فلا
يسمح له بالتدخل في شؤون الدولة أبداً وله أن يعيش في حدود
الدولة كأهل الذمة"¹².

في ثمانين عاماً، دخل تعبير totalitarianisme "الشمولية" بعجره
وبجره المدارس السلفية كافة، وصار الاعتزاز بإكمال أو استكمال
القيود والواجبات والممنوعات عبر ضرورة تطبيقه. بل وجرى ابتداء
مفهوم "واجبنا نحو الشمولية" وهو بحق ما لم يخطر على بال
ستالين أو هتلر أو موسوليني. حتى أن الشيخ محمد كامل السيد
رباح يعدد "واجبات الإنسان نحو الشمولية" وكأن الشمولية ركن
أساسي من أركان الدين يقول:

¹²أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه، طبعة ثالثة، دار الفكر،

"واجبنا نحو الشمولية: 1- أن نؤمن بها... 2- أن نطبقها في حياتنا تطبيقاً كاملاً... 3- أن نربي أولادنا عليها... 4- الدعوة إليها...¹³".

المطاوعة، أو "الشمولية المقدسة" في الحياة اليومية

يقدم لنا الدكتور أنور عبد الله في كتابه خصائص وصفات المجتمع الوهابي-السعودي... وصفاً دقيقاً ومنتبعا لظاهرة "الشمولية" في المدرسة الوهابية. كانت هذه المدرسة صناعة سعودية-وهابية خالصة، حتى لا نقول نجدية في بداية انطلاقها، حيث يختصر محمد بن عبد الوهاب الفرق بين أهل نجد الوهابيين وبين سائر الناس بالقول: "إن سألت عن سبب الاختلاف الذي بيننا وبين الناس، ما اختلفنا في شيء من شرائع الإسلام، والشئ الذي عند الناس زين عندنا زين والشئ الذي عندهم شين عندنا شين، إلا أننا نعمل بالزين ونغصب الذي عندنا عليه، وننهي عن الشين ونؤدب عليه"¹⁴. يشرح الباحث الدكتور أنور عبد الله، ابن الجزيرة العربية والمنافي الخصائص الوهابية بالقول: "الوصايا

¹³ الشيخ محمد كامل السيد، الشمولية في الإسلام (خطبة)، وضعت في 2014، موقع

الألوكة: <https://www.alukah.net/sharia/>

¹⁴ الدكتور منير العجلاني، "تاريخ البلاد العربية السعودية"، دار الكاتب، بيروت، دون تاريخ نشر، ص 213.

الوهابية، والقاتيكان الوهابي" بشموخه اليوم وسطوته الكلية على المجتمع، "مدان بسياسة" الغصب والإجبار والإكراه التي انتهجها منذ عشرات السنين. وبما أن الوهابيين من أهل السنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، إلا أنهم شذوا عن القاعدة العامة لجميع المذاهب، حيث: لم يدع أحد من الأئمة الأربعة إلى مذهبه ولم يتعصب له، ولم يلزم الناس بالعمل به أو بمذهب معين، وإنما كانوا يدعون إلى العمل "بالكتاب والسنة". وربما طرح سائل: هل الوهابيون وحدهم الذين يستخدمون أسلوب القمع والإكراه ضد مواطنيهم؟ هذا صحيح إذا كنا نتحدث بشكل عام عن الإكراه والعسف في المجال السياسي والمطالبة بالحرريات الديمقراطية، حيث يشارك الوهابيون عشرات الأنظمة السياسية عربية وغير عربية. ولكننا هنا نتحدث عن "الإكراه والإجبار" خارج نطاق كل المفاهيم السياسية والأمنية، حيث نرى هناك زاوية "شبه مقدسة" لم يمسهما أو يقتحمها أو يصادها أعتى الأنظمة الدكتاتورية في التاريخ الإنساني ألا وهي "الحریات الشخصية للرجل أو المرأة" وحركة الإنسان البريئة غير التأمرية داخل المجتمع (يعني، يرقص، يمضي يصفر، شكل الملبس، يذهب إلى الكنيسة أو المسجد، حسب قناعته، نوعية التسلية التي يرتاح إليها دون الإضرار بمصلحة الآخرين... إلخ). كل هذه الأمور الشخصية والبدئية،

اختفت، بل أنها محاربة بشدة داخل المجتمع الوهابي "المسير".
حرية الاختيار هنا ليست محدودة، بل مفقودة وتتنافى وسياسة
"الغصب" الشاملة التي يطبقها قادة "الفاتيكان الوهابي" على أرض
الواقع الاجتماعي. وما أن يجراً أحد المواطنين ويطالب علنا بجزء
من "حريته الشخصية" سرعان ما يتلقى الجواب الجاهز والقمعي،
والذي يتكرر مئات المرات: "ليس هناك حر إلا الله جل جلاله يا
كلب!"¹⁵

أولى الطاعات في المجتمع الوهابي-السعودي تكمن في طاعة
ولي الأمر. فإن لم تكن الفرائض معطلة منه ولم يأمر بترك صلاة
أو صيام أو حج، انطبقت بحق ولي الأمر فتوى ابن باز: "لا نرى
السيف على أحد من أمة محمد إلا من وجب عليه السيف، ولا
نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا
تترع يدا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل ما لم
يأمروا بمعصية"¹⁶ ثم تأتي طاعة العلماء والتي نجدها في تعريف
ابن باز وابن عثيمين، نجد في الرد على السؤال: ما المراد بطاعة
ولاة الأمر في الآية هل العلماء أو الحكام؟ جوابا مفصلا واضحا:

¹⁵ الدكتور أنور عبد الله، خصائص وصفات المجتمع الوهابي-السعودي، بحث
سوسيولوجي-أنثروبولوجي، مكتبة الشرق، باريس، ص 45-46.

¹⁶ الشيخ عبد العزيز بن باز، مجموع الفتاوى الجزء السابع، مذكور أيضا في أنور عبد
الله، ص 102

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. وأولو الأمر هم العلماء والأمرء وأمرء المسلمين". ثم تأتي طاعة "المطوع"، هذا الابتكار الوهابي الذي عرفه ابن باز بالقول: "الذي يسمونه: مُطَوَّعًا، أي: قد طَوَّعَ الله، جعله الله عابِدًا له، مطيعًا له، برتبة زائدة على العامة، فوق العامة ودون العالم؛ لأن معنى مُطَوَّع أي: قد طَوَّعَ الله وجعله يعمل بطاعة الله، وينفع الناس، ويصلي بهم، ويعلم أولادهم، فيقال له: مطوع¹⁷".

طاعة المطوع طاعة مباشرة وفورية والزامية لكونها طاعة في الفضاء العام: الأسواق، الحقائق العامة، المطاعم، الأزقة، مع الحق في الزجر والنهي والجلد بل التوقيف ثلاثة أيام ووقف حركة العمل لدقائق أو ساعة. (هذه الصلاحيات لم تعد نفسها منذ إمساك ولي العهد محمد بن سلمان بالسلطة ومساعيه لتهميش هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

منحت الثروة النفطية والحرب الأفغانية ووصول الخميني للسلطة في إيران، فرصة تاريخية- أو بالأصح معاكسة لحركة التاريخ- لخروج السلفية الوهابية من المملكة العربية السعودية وقطر إلى العالم... ويبدو لنا دور المعارك السياسية على النفوذ في الجزيرة

¹⁷ مذكور عن موقع الشيخ ابن باز عند د. مسفر بن علي القحطاني، المطاوعة، تاريخ المفهوم وتحولاته.

العربية والبلدان الإسلامية واضحا، حيث شكلت الإيديولوجية السلفية السلاح الأول والأهم، لمواجهة ما سمي "أجنحة المكر الثلاثة"¹⁸ من جهة، والصراع الإيديولوجي المذهبي بين الجمهورية الإسلامية في إيران مع العراق ودول الخليج.

خلال قرابة نصف قرن، تحولت العديد من الأولويات على صعيد التعليم والتربية والإعلام عما كانت عليه قبل حرب 1967. كان جيلنا بمعظمه عندما يُسأل عن مستقبله التعليمي يتحدث عن الدراسات العملية كالطب والهندسة (أولا)، ثم العلمية والاقتصادية (ثانيا).. فجرى إغراق جيل الهزيمة بكليات الشريعة والدراسات الإسلامية. كنا نتندر على شيخ القرية عندما يقول: "لم يصلوا إلى القمر، أخذوا حجارة من الأرض وعادوا بها"، فأصبحت تخرج فتاوى تكفير في العديد من الاكتشافات والفتوح العلمية من شيوخ متفرغين

¹⁸يشير مصطلح "أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها" إلى كتاب شهير للشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، يحل فيه وسائل الغزو الفكري والديني والثقافي الذي تعرض له العالم الإسلامي. "الأجنحة الثلاثة هي: (التبشير أو التنصير، الاستشراق أو الدراسات الغربية التي تُقدّم وتُعرف الإسلام والتاريخ في قراءة غربية، والاستعمار، أو ما أسماه احتلال البلدان الإسلامية بالمدفع والبضاعة والمطبعة، ويلخص الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني "الخوافي" بالوسائل الخفية وغير المباشرة التي تستخدمها هذه الأجنحة.

من مختلف البلدان الإسلامية لقراءة وإعادة قراءة واكتشاف ابن تيمية وابن القيم الجوزية. فتاوى ابن تيمية الكاملة توزع مجاناً في سفارات المملكة العربية السعودية... حتى محمد قطب، بدأ يضع في كتاباته إلى جانب مقاربة سيد قطب وأبو الأعلى المودودي جملاً "مأثورة" لمحمد بن عبد الوهاب وكذلك حال سعيد حوى والألباني مع ابن باز وابن عثيمين. وعدد ممن وجد من الكتاب الإسلاميين في المملكة، الملجأ من قمع الدكتاتوريات العربية.

في مقال تحليلي للدكتور مسفر بن علي القحطاني، نجد قراءة تحليلية متميزة لقضية ضبط المجتمع وإيجاد المؤسسة الضرورية لهذا الضبط في المدرسة السلفية الوهابية، ابتداء من المطاوعة مروراً بمأسستها منذ ولادة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. معروفة نتائج جهاز الرقابة والمحاسبة الاجتماعي هذا وجرى التعرض لها من قبل عدد من الباحثين من أبناء الجزيرة العربية، ولكن المصيبة كبرت وتفاقت مع الأشكال الموازية التي نشرها العرب الأفغان، من أفغانستان إلى سوريا.

في بيئة تصحر ثقافي وفقر دم في الحياة السياسية والمدنية، ومع عجز المشاريع المقترحة من عدد محدود من الثائرين على الأوضاع البائسة، عن الخروج من الإنتاج الحرفي المحدود إلى

قطاعات واسعة، وبنفس الوقت تمترس المؤسسات الإيديولوجية القمعية وراء حجاب المقدس، تكفير وتحريم ما يمكنه زعزعة ما يعتبر إنجازاً فوق طبيعي، يتمثل في توحيد معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية... في غياب مشروع سياسي مشترك لمن يفكر بالمواجهة والتغيير، تتفكك البنيات والمهن الجديدة (الطبيب، المهندس، المثقف، المعلم والجامعي والمخترع...) بكلمة، المجتمعات الحديثة النشأة والتكوين وتنهار في ذاتها ومن أجل ذاتها، بمعنى أن الأفراد يصبحون في العراق دون أية تعبيرات مقبولة سياسياً ومجتمعياً لاستقلالهم وتقدمهم. فلا تنظيمات سياسية أو مؤسسات نقابية أو جمعيات مدنية مستقلة¹⁹. في هذا السياق المتغير، يتعزز وجود الرؤى الشمولية عبر المؤسسات الأقرب للسلطة، عبر مزيج من الأيديولوجية والعنف، مستوليةً على وسائل الضبط والتوجيه، مما يُنتج على المدى المتوسط أثراً مزدوجاً يتمثل في تقنيت المجتمع وتدميره²⁰. بمجرد وصولها إلى السلطة، تعتمد

¹⁹ هنا تكمن الفكرة العبقريّة للدكتور الفقيد عبد الله الحامد، التي دفع حياته ثمنها

لها: المجتمع المدني باعتباره السبيل العملي للخلاص من الحكم العضوض.

²⁰ الأيديولوجيا والإرهاب هما الفكرتان الرئيسيتان اللتان طرحتهما حنه أرندت لتحديد أصول الشمولية وتمييز هذا النظام عن غيره من أشكال الأنظمة الاستبدادية، وهما الأساس في تعزيز وانتشار "الشمولية المقدسة" في المجتمعات الإسلامية.

هذه الحركات الشمولية على فرض تصورهما الخاص، على الأجهزة المقبول بها في النظام الاستبدادي، لتدمير المجال العام، وقدرة الأفراد على المعارضة السياسية، ثم الحياة الخاصة من خلال إزالة الحدود الفاصلة بين الحياة العامة والخاصة.

في تجربة "السلفية الجهادية" بشكل عام، نلاحظ سهولة الفتوى والموقف والفعل دون السؤال عن مدى انسجامه مع التجربة الإسلامية النبوية والراشدية. وكم احتاج علماء مسلمين ليثبتوا أن قول التكفيريين بأن "آية السيف" تتسخ أكثر من 140 آية قرآنية لا أساس له في الفقه والشرع. كم هو عدد العلماء المسلمين الذين اعتبروا غزوة منهاتن (11 سبتمبر 2001) جريمة جسيمة بكل المعايير الدينية والدنيوية!! وكيف ألغيت من قاموس التداول، آيات قرآنية تجعل من البناء الأمني والمخابراتي للدولة أساس التمكين للتصور السلفي الجهادي، مثل الآية الكريمة "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، أوجب أحكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه".²¹ والتي يختصر مكانتها في الحياة عمر الخيام في رباعياته: "لا تؤذ خلق الله أو تغتبه، وأنا الضمين غدا... " .. أي رفض الرقابة

²¹ سورة الحجرات، 12.

المعممة وترك الناس وشأنهم وعدم أدبتهم ورفض التعصب والرياء المؤديان حكما، إلى ثلاثية التكفير والتحريم والتفجير .

من هنا، نلاحظ في الواقع الفعلي والتجربة الجهادية المعاصرة، دورا خاصا للمسؤول الأمني والمسؤول الشرعي. فلا بد من إرهاب مؤسسي لضبط الناس وتحييد المخالفين والمعارضين والأقليات الواقعة خارج الخيمة الإيديولوجية أولا، ولابد من إشراف صارم للشرعيين (الشيوخ) على قضايا الثقافة والمعرفة والحياة اليومية للناس. استفاد تنظيم داعش من خيرة ضباط الأمن في النظام العراقي السابق (الذين أسلموا وحسن إسلامهم على حد تعبير البغدادي) كذلك أحاط تنظيم القاعدة "جبهة النصر" وتحالفاتها باستمرار، بمجموعة من الشرعيين غير السوريين الذين كان لهم دورا كبيرا في نقل "التدين العام" السوري من تنوعاته الغنية والقاحلة، والتي لم تكن في أغلبيتها الساحقة "سنية" أو جهادية سلفية، إلى أبو عبد الله المهاجر وأترابه، الذين زرعوا صناعة التوحش الباثولوجية و"أخلاق" الفتك والغيلة في معسكرات جبهة النصر في شمالي غرب سوريا. حيث الأموال الخارجية لم تكن فقط لشراء صواريخ غراد، وإنما أيضا، لنقل تجربة المطاوعة (على

سبيل المثال لا الحصر: "سواعد الخير" أو "مركز الفلاح" في التسمية الأدبية) للرصد والسيطرة على نمط حياة الناس وأفعالهم في إمارة الأمر الواقع في الشمال السوري قبل تعميم ذلك على عموم البلاد.

نلاحظ بوضوح في كل المدارس والجامعات، التي تقع تحت سيطرة داعش والنصرة، أن أساليب التدريس والتعليم قائمة على التلقين والخضوع والحفظ دون تبصر، بدلا من الانخراط في التأمل وقراءة الوضع البشري والبحث العلمي والعلوم التطبيقية البناءة²².

هذا النهج التعليمي شكل بالضرورة، عقولاً شابة تفتقر إلى مهارات التفكير النقدي والتجديد، وبالتالي غير قادرة على التفاعل مع المشكلات الناجمة عن تحطيم الحجر والشجر والبشر في حروب مذهبية مسطحة. ما زلنا بحاجة إلى إحصاء العمليات الإرهابية ضد الشيعة والإيزيدية والكنائس في العراق، وقد أحصينا في "بيان ضد الفاشية الجهادية" بعض المجازر بحق العلويين والدروز في

²² استقادت "هيئة تحرير الشام" أيضا من عدد كبير من أئمة المساجد الهامة في دمشق وريفها وحلب وحمص ودرعا إلخ، ممن سمح نظام الأسد بنشاطهم وخطبهم لسنوات طويلة. الذين اعتبروا لعهد قريب هيئة تحرير الشام "فرقة باغية" !!

سوريا. لذا لا نمل من التذكير بما قلنا منذ أعوام: "الخطاب- الصراع" المذهبي، باختصار شديد، هو سلاح دمار شامل للمجتمعات والدول، قبل أن يكون مواجهة بين معارضة ذات برنامج سياسي ونظام حكم مستبد. كونه باختصار يقوم على تصنيف عنصري-مذهبي بين مكونات المجتمع الواحد ويعتمد مقارنة كلانية: (tous les...sont)

كل الراضة كفر، كل النصيريين أعداء، كل النواصب أعداء لعلّي وآل البيت، كل الإباضييين خوارج، كل الموحدين الدروز خارجين عن الإسلام، كل المخالفين لنا صحوات ومنافقين، كل من لا يبايعني فهو عدو لله...

تشكل الشمولية المقدسة في اعتمادها التمييز بين الناس قاعدة للتصنيف البشري على أساس المعتقد والطائفة والمذهب، في تنكرها لأي حق لغير "السلفيين" في إدارة وتسيير شؤون الدولة، في اعتبارها الدولة الوطنية والديمقراطية شرك وكفر، في استباحتها حقوق الأقليات واعتبار أملاكهم وما عندهم غنائم لأهل السلطة والغلبة... بفرضها منطق "أطيعوني" للبغدادي والجولاني

وغيرهما... تعتبر هذه المنظومة المغلقة والمتحجرة دون شك،
مشروعاً متكاملاً للدمار الذاتي للمجتمعات.

الهيمنة العقيدية

لم يخطر على بال ابن المقفع، وهو يكتب وصايا الخليفة، أن من يسميهم "آخرين" سيصبحون كل شيء، تقريباً، بعد قرن من الزمن، فقد كان يرى في مجتمعه اتجاهاً يقول: "الناس نظائر ولا يقوم بأمرهم إمام"، وصوت آخر: "سمعنا آخرين يقولون بل نطيع الأئمة في كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصية ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً هم ولاة الأمر وأهل العلم ونحن الاتباع وعلينا الطاعة والتسليم".

أعدم ابن المقفع بقطع أعضائه وحرقها أمام عينيه في مطلع عهد المنصور (م:158هـ) وبدا للعيان أن المنصور قد أعد العدة لتقوية أجهزة الاستبداد وبلورة إيديولوجية بآن معاً: "أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوقيقه وتسديده، وأنا خازن فيئة أعمل لمشيئته وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه قد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى، وإن شاء أن يقفلني أقفلني... يقول تبارك وتعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" (الطبري حوادث 158). المهدي سيخلص

لوصية أبيه في تقوية سلطة الاستبداد ومحاربة. أهل البدع والزندقة، إلا أن التيارات المعرفية والعقلانية والمجونية، مدعومة بمعارضة اجتماعية-سياسية واسعة، ستجبر ثلاثة خلفاء. (المأمون، الواثق، المعتصم) على اختيار أهون الشرين: المعتزلة في وجه الزنادقة والإسلاميين المتمزتين، حيث تسمح مبادئ المعتزلة بالتوفيق بين متناقضات العصر: المنزلة بين المنزلتين أصبحت بحق التوفيق بين الإرادة الحرة والوعد الوعيد، بين استبداد الإمام ومفهوم العدل، بين النبوة والعقل، بين الخليفة والجمهور؟

ولكن الخلافة اختارت المعتزلة كفرقة، لا كحركة فكرية سياسية، كمذهب وليس كتيار يسعى للتوفيق بين الفلسفة والإسلام، وسقط المعتزلة في ممارسات الاستبداد ليساهم قضاتهم في محاكمة أصحاب الآراء الآخرين جميعاً مهينين التربة مخصبة "لعلماء" الاستبداد، المدرسة السنية المتمزمة (السلفية كما سيجري التعارف عليها)، منتصرة منذ المتوكل، ستقتي للخلفاء بكل خطوة يخطونها ما دامت تصب في مجرى إعدام الهراطقة وتكبييل "الملل والنحل" الدينية الأخرى واستبدال

الأرثوذكسية المتعددة (تعدد المذاهب الفقهية) بالأرثوذكسية
الواحدة.

عهد أردشير testament d'Ardasir سيصبح حديثاً
للنبي محمد رواه ابن العباس: "الإسلام (في الأصل الدين)
والسلطان أخوان توأمان لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه فالإسلام
أس والسلطان حارس فما لا أس له منهدم وما لا حارس له
ضائع... و"أطيعوا أولي الأمر" ستصبح أهم آيات القرآن أما
الآية "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله". فخبز الأئمة
والعامة اليومي.

خاض الزنادقة والإلحاديون والعقلانيون والقرامطة عبر
قرنين من الزمن (بدءاً من النصف الثاني للقرن الثاني
الهجري/الثامن الميلادي) أهم المعارك النظرية مع الأديان:
التناقض بين العقل والنبوة وبين المعجزة والواقع... بين النقل
- الاتباع، والتجديد - الإبداع، بين مفهوم العدالة الإلهية
وواقع الظلم في الأرض، منزلين الجنة والنار إلى المجتمع
"النار هي جحيم المجتمع القائم والجنة نعيم المجتمع القادم"،
وكسرت كتب الهرطقة الهالة القدسية للأديان. إلا أن هذا

الصراع النظري والسياسي-الاجتماعي قد حورب من الخلافة الرسمية بالسيف بدعم من الأئمة الذين لجأوا إلى سياسة تكفير الغير والتفوق والانغلاق على النفس خوفاً من أي حوار ممكن لتتبلور جملة أركان فتاوى الاستبداد: قياس التقوى بالطاعة العمياء، العلم بالتمسك بالسلف الصالح (الدين منقول وليس بمعقول)، الإيمان بمدى غياب حرية إرادة الفرد والجماعة "الخلق كله لله يميت ويحيي ويفقر ويغني ويصح ويسقم ويبتدئ بالنعيم من يشاء" (ابن قتيبة)، الفتوى بطاعة الخليفة وطائفية السلطة (طائفة الخليفة هي طائفة العامة والخاصة، طائفة المجتمع والأئمة).

وهكذا، لم ينتظر المشرق العربي الإسلامي اجتياح المغول وسقوط بغداد (656م/258هـ) ليدخل عهد السواد، وإن كانت الخلافة قد تسابقت مع الإسلام في تفسخها فقد مثل القرن الخامس/الحادي عشر بحق مرحلة "الهيمنة العقيدية" التي رسخت طبيعة الإسلام ووضعت جثة مشرحة في مخابر الأئمة بإعطائه بعده المتكامل كأيدولوجية بأسوأ ما للكلمة من معنى (نظام مغلق من "الحقائق" المطلقة الأبدية: ربوبية مطلقة،

عبودية مطلقة، طاعة غير مشروطة.. (الخ) ... جعبة ميراث العلوم الدينية كلها تخرج عن سيرورة إنتاجها الفعلية لتدخل مع (القرآن) في هالة اللاهوت والقدسية عبر التكرار والاجترار المقيت للأباء الأوائل ضمن منطق سيعيش طويلاً (الحركة داخل اطار ثابت حول محور ثابت-سيد قطب)، حيث لم يعد للطاغم الإسلامي (فقهاء ورجال دين وعلماء...) إلا رصد حركة التأويل والتفسير والفقه والرواية والقياس والإفتاء في القرون الأربعة الأولى للإسلام ضمن مهمة واعية ومنظمة: وضع حد "لتطاؤل" الفلسفة والعقل والعلم والإلحاد والزندقة والمجون والعامة على الدين.

سيتكفل الماوردي (م450/1056هـ) بترتيب دستور الخلافة ومنح بركات شرعية "التاريخية والدينية للخليفة، ابن الجوزي (م597/1200هـ) سيقوم بغسل الأرثوذكسية وتفتيحها من شوائب الشيطان في كتابه "تلبيس إبليس"، بعد أن لخص الغزالي (م505/1111هـ) الإسلام "الدين شطران أحدهما ترك المناهي والآخر فعل الطاعات" (بداية الهداية) ونظم السنن في موت-أحياء علوم الدين ليعمد حجة للإسلام السني. الغيبتان

الصغرى والكبرى، سجلتا انتقال الإمام إلى السماء وسلطته إلى رجال الدين الشيعة، جفاف الرؤوس بعد اثني عشر إماماً سينكفى في أسطورة الجثة السلفية الشيعية إلى الكمال الأرضي في العلم تحقيقاً للكمال السمائي. "الكافي في الحديث"، من لا يحضره الفقيه"، "إكمال الدين وإتمام النعمة في إثبات الرجعة.. الخ ستؤرخ حسب تعبير علي حسين الجابري "نقاء العقيدة وصفائها" أي غسلها من شوائب الشيطان والنظر والجدل والبدع والغلو والاجتهاد... "يا علي! لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض" (ابن بابوية، الكمال الدين، ص 248). لقد تم تركيب الأسطورة في الكتب والشعائر، أما في الحياة اليومية، فمهما كان مبالغاً القول بوجود "مائتي ألف محدث" في قم فعشرهم بأضعف الإيمان، يعتش من إمامة "العدل" ودم الحسين، يأكل ويشرب وينكح من الخمس (جزية الإسلام على المسلمين) فيما سيعطي إلى جانب جهاز سلطان الخلافة، جهاز سلطان الأئمة، وستضيع صيحة المبصر "الأعمى" المعري إلى يوم أصاب فيه الخميني إيران كلها بالعمى:

لعمرك ما أسر بيوم فطر ولا أضحي ولا بغدير خم

وكم أبدى تشيعه غوي لأجل تتسب ببلاد قم

رفعت الأقلام وجفت الصحف، ما كان بوسع البشر قوله
قيل (؟؟) ومجرد طرح السؤال: هل تهافت المسلمون أم الفلسفة
بعد تدوين الغزالي (تهافت الفلاسفة) سيكلف ابن رشد إحراق
كتبه على الملأ.

حلم المنصور "لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ولا تصلح
رعيته إلا بالطاعة.. السلطان حبل الله المتين وعروته الوثقى
ودين الله القيم"، يتحقق حلم المنصور في كاريكاتير الدويلات
والسلطين المحكومين من قادة جيوشهم، وسيغني الأئمة
مجلدات الحديث بعباراته أحاديثاً ستصبح مع كل ما يرخصها
في مفهوم الطاعة المحمدي سلاحاً للأئمة، حيث لم يعد من
الضروري ذكر المراجع والراوي: "الملوك ملهون"، "السلطان
ظل الله في الأرض"، الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه...
وليس من الغريب الإصرار منذ ابن الجوزي إلى ابن تيمية على
أن الحديث "أول ما خلق الله العقل" موضوع بإجماع الأئمة.

الانغلاق هو سمة العصر، انغلاق الفرق على نفسها،
والقبائل على نفسها، والدويلات على سلاطينها، والحاضر على
ماضيه، الفقهاء يفسرون الانحسار والانحدار الاقتصادي
والتردي الاجتماعي والتخلف الفكري على اعتباره خصيصة
الإسلام وخاصيته: خروج المرأة إباحة، النقاش في الدين
والفلسفة زندقة، الحديث عن الاستبداد فتنة، واعتماد العقل
اعتزال. مناقشة الإمامة باطنية وشكوى الفقر قرمطة.

ليس لنا أن نصف البؤس بكلمات لا تملك أن تعبّر عن
مداه كل يوم جديد يحمل لأصحابه مصائب جديدة... لقد هرم
الناس، بل دفنوا أحياء.

* نشر في النقطة، العدد 3/2 حزيان (يونيو) 1983.

توتاليتارية

إسهام في نقد الإيديولوجية الإسلامية

الطاعة

في حين تقوم القوانين الوضعية على مبدأ ضبط الصراعات المجتمعية مستندة على تقييم السلوك الإنساني وفق ثنائية مانوية متحركة تخضع للزمان والمكان وتحدد في مفهومي النظام-الفوضى، يعتمد التصور الإسلامي مفهوم الطاعة كتجسيد للانقياد والانصياع لأمر، لعبودية أدنى لأعلى. وليس من المجدي كثيراً خوض النقاش حول عبودية من لمن. كون المنطق العبودي بالأساس منطق شمولي يعيد إنتاج نفسه على مجمل الأصعدة. نقل الحاكمية إلى الله (نهاية عبودية البشر للبشر وإعلان عبودية البشر لله حسب سيد قطب) تعبير مجرد عن واقع غير موجود، تمثله الواقعي يكمن في رصد الطاعات الأرضية كشرط لتحقيق رضا السماء. هذا النقل، لا يمثل فحسب، نفيًا للوجود الإنساني الملموس باعتماد مبدأ قوة فوق إنسانية تلغي فواصل الزمان والمكان، وتلغي الاختيار البشري

الحر عبر اعتماد مبتكر، أو بدعة "الشرعية الإلهية المقدسة" التي لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، بل هو بالفعل مفتاح إعادة إنتاج العبودية على الصعيد المجتمعي الواقعي. حيث طاعة الله مرهونة بتحقيق الطاعات الأرضية والإسلام بتعريفه الواقعي يصبح: ترسيخ عبودية الإنسان للإنسان تحقيقاً لأمر الخالق في خلقه "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" (النور 54) اركعوا واسجدوا وابدعوا ربكم (الحج 77) هذا الأمر لا يتحقق إلا بتحقيق ما أراد بطاعته، فيما يعبر عنه الإسلاميون بـ"الطاعة المشروطة على الأرقاء والعبيد في حق سادتهم (عبودية بشر لبشر)، الطاعة المفروضة على المكلفين لله ورسوله (الطاعة الطقوسية والمعاشية)، الطاعة المشروطة في حق الخلق لقيام شوكة السلطان (الطاعة للمستبد العادل أو الجائر) الطاعة المفروضة في حق الزوجة لבעلها (الطاعة الاجتماعية داخل الهرم العائلي). لا يمكن فهم آليات الطاعة بمعزل عن التركيب الداخلي للعلاقات السلطوية في المجتمع، وبأخذ حالة معينة (طاعة المرأة لבעلها) نرى أن طغيان الرجل، إنما يتكامل عبر علاقة ثلاثية تلتقي على النفي الشامل للمرأة كذات إنسانية، قوام هذه الثلاثية: الإيديولوجية الإسلامية-

منظومة القيم المحلية الأبوية السائدة - علاقات إنتاج الإنسان، حيث الدولة تلعب وبشكل أساسي، دور المقونن بوصفها المدافع عن الله والعادات والتقاليد وصلة الرحم.. الخ. تشريع الدونية، تشريع تفضيل الهي أولاً وواقع اقتصادي (بما فضل الله... وبما أنفقوا من أموالهم) تعميم التفوق الرجالي، يرافقه تعميم امتيازات، النص يرخّص والفقّه يمنح البركات (ضمن منطق تعدد النساء لرجل واحد، ليس من الهرطقة أن يعلن ابن قيم الجوزية: الشهوة منبعها الحرارة وأين حرارة الأنثى من حرارة الذكر؟ (القياس في الشرع الإسلامي، ص118).

الجنس، كعلاقة إنتاج ومتعة، رجالي أولاً، والمرأة كموضوع لذات الرجل مادة تحقيق لامتيازاته، لسلطته: غنيمة يغتتمها في جهاده، سلعة يشتريها من السوق أو من بيت أهلها، قوة عمل مشتراة، ليس فحسب للحقل والغزل والمنزل، بل ككلية اجتماعية وشخصية رهن لإرادة الرجل في فراشه وحياته. الخاص مرهون بالرجل، والمرأة من خصوصياته.

في الأرض: النساء (بالجمع) يحققن مراد الرجل، أما الرجل (بالمفرد) فليس من واجبه تحقيق مراد امرأة. في الجنة: النساء

(بالجمع) رهن إشارة الرجل، المرأة المؤمنة (بالمفرد) ليست ذاتاً تستحق حتى كلية بعد(ها) واحد؟ المرأة في الإيديولوجية الإسلامية سلعة، أما منزلها، فخير من يصفه أحد الأعراب "يقولون تزويج وأشهد أنه هو البيع" (مخطوط باريس 1176، ورقة 190).

ضمن هذا التقزيم، إيديولوجية الطاعة، هي الإيديولوجية الوحيدة القادرة على إلغاء الذات، إلغاء الجسد، إحاطة نسويتها بالعورات التي لا يستر الزوج منها إلا واحدة، والموت وحده، أي نهاية وجودها المادي والروحي، يتكفل بسترها (انظر الغزالي إحياء علوم الدين ج 2 ص 58). في الأدبيات الإسلامية التاريخية والمعاصرة ثمة منطق مشترك في النظرة إلى الجنس: ميكانيكية إيلاج قضيب واحد في فرج أو فروج مختلفة يعبر عنه في مفهوم وتعريف الزنا خير تعبير: "إيلاج فرج ذكر بفرج أنثى" هو عملية مرتبطة بعضو الذكر بالأساس، الإيلاج في مهبل المرأة وفي اللواط واحد، أما الفرج النسائي فلا يتحقق إلا برجل والجنس المثلي (السحاق) أو الاستمئاء النسائي، لا يدخل في القاموس عند الحديث عن الزنا والاستمئاء والمحرمات، لذة

المرأة ممكنة بوجود الرجل (هذا إذا أُشير إليها) ولكن غير قائمة بذاتها.

ثمة ظاهرة معاصرة تستحق التوقف عندها، وهي أسلوب وموضوعات التناول عند الكاتبات الإسلاميات، من السهل أن يلحظ المراقب نظرة حقد وخوف مشبعة في وعيها ولا وعيها مشبعة بالغيرة تجاه المرأة المتحررة، مهما كان شكل وطبيعة تحررها: كيف لها أن تعيش وحدها مع رجل، كيف لها أن تتمرد على الضرب، كيف لها أن تعمل وتتعلم بمشيئتها، كيف لها أن تدخل المحافل العامة... إلخ. الله هنا هو مركز آليات الدفاع الذاتي عن العبودية المعاشة. حيث الحرية مرتبطة مباشرة بالعصيان الديني والدونية مرهونة بطاعة التصور الديني والأمر الديني دون أن يخفي ذلك مترتبات الحرمان النسوي المعاش الذي يجعل من الأقلام النسوية مباشرة عدوة أي تغيير وعدة أية امرأة تحقق ذاتها، كون هذا التحقيق الممكن والمعاش ولو بشكل محدود في المجتمع العربي الإسلامي يضع على بساط البحث جملة معالم العبودية المؤدلجة. والتشكيك بهذه

العبودية عند الإسلامانيين مرهون بالتشكيك بكل ما عاشته وتعلمته و"ضحت" له.

التشكيك هو الخروج، الخطيئة والإحساس المر بالذنب تجاه الرؤية العقيدية للحياة، هو رفضها لوجودها العبودي الذي حطم ويحطم وجودها الحقيقي (كتابات حميدة قطب حول الزي الإسلامي، وزينب الغزالي الجبيلي في "نحو البيت الإسلامي" مجلة "الدعوة" خير مثال لذلك، حيث الهجوم منصب على التنظيمات النسائية والمرأة غير الملتزمة بالإسلام تقوم على مرجع شرعي، المرأة لا تتحدى سلطة وفوقية الرجل، بل القرار الإلهي: "شرع الله").

هذه الناحية يعبر عنها الكاتب الإسلامي عبر دفاع مباشر عن مصالح واضحة وسلطات معطاة، لذا فهو يهاجم المرأة غير آبه "بمشاعر" النسوة مسلمات كن أو غير مسلمات. الدكتور زكي مبارك يلخص منهج الرجال الإسلاميين في كتابتهم عن المرأة: "يرحمك الله يا أبي فقد كنت لا تدفع ثمن النعل إلا بعد أن تجربيه على رؤوس زوجاتك" (الرسالة 1941). ما بوسع الكاتبة المسلمة أن تقول في "كتب الحديث": "حق

الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها أو انتثر منخراه صديداً أو دماً ثم ابتلغته ما أدت حقه" (النموذج المعاصر: مقالات د. محمد كامل الفقي في مجلة "الاعتصام" المصرية).

باختصار، الاعتراف الإيديولوجي بالمرأة قائم على إنكارها لذاتها، "الاحترام" الديني والاجتماعي مرهون بالعبودية الاجتماعية والمرأة الصالحة هي الأمة الطائعة حيث لا يعترف الطغيان الرجالي إلا بمن يقبل بطغيانه.

في المسيحية، ينصب الإنسان، إنساناً بالعمادة لا بالولادة، في الإسلام الولادة إسلامية كون الإسلام دين الفطرة، في الديانات الثلاثة الإبراهيمية ثمة مشكلة لا إنسانية الإنسان بمعزل عن الانتماء الديني، تحسمها الوراثة الدينية الإجبارية في الجماعة المؤمنة.

الطاعة رفيقة الولادة في الإيديولوجية الإسلامية، سنية وشيعية، ولا تقل لهما أف، هي صورة طاعة الأبناء للآباء (أنت ومالك لأبيك)؟ وتستكمل الطاعة صورتها بتحقيق جملة معالمها: إعادة إنتاج الابن على صورة أبيه، البيت الأكثر تقى هو البيت الذي يعيد أمر الدين في تربية الطفل، الأمر بالصلاة

في سن السبع سنوات والضرب عليها في العاشرة، تحفيظ القرآن منذ الطفولة بشكل خاص جزء عم، الفصل بين الجنسين مع البلوغ وتشرب المناسك والشعائر، مع نمو عظام الجسم، في خيار واحد ينسب فيه القول لعمر بن الخطاب: علق عصاك بحيث يراها أهل الدار؟

كون الرقيق قد تجاوزه الزمن، وسيفرد للشعائر والإمامة مقطع آخر، ننتقل إلى آلية تحقيق الطاعة في الحياة الواقعية، تداخل الإيديولوجية بالمصالح المعاشة.

لعل عمر الخيام من أوائل من تنبه للطابع التبادلي للطاعة بقوله:

إن كنت تجزينا الجنان بطاعة يك ذا لنا بيعاً فأين عطاك؟
فالطاعة كعلاقة سلطة تتحقق عبر منظومة مصلحة،
مباشرة يعبر عن جانبها الدنيوي عمر بن عبد العزيز بقوله "ما أطاعني أحد من الناس فيما عرفت من الحق حتى بسطت له طرفاً من الدنيا".

لن نتحدث عن الطابع التبادلي ما بعد "الحياة الدنيا" بقدر ما سنحاول تتبع التحقيق الديني لهذه العلاقة. تعتمد المنظومة المصلحية هذه، إعادة تركيب جملة مقومات البنية الاجتماعية وفق اعتبارات تربط الحياة المعاشة بالعقيدة: "المرأة الحرة المسلمة" لها في عبوديتها "امتياز" على جملة النساء: ليست أمة (عبدة مشتراة أو مأسورة) وليست كغير المسلمة (كتابية كانت أن غير كتابية) ولها سلطة على أولادها.

الرجل المسلم "سيد" في بيته وعائلته ولو كان محكوماً بمستبد خارجه، مواطن من الدرجة الأولى، نسبة لغير المسلم وإن كانت هذه المواطنة على حساب شخصيته نفسها. السلطة الاجتماعية الداخلية تقوم على علاقات استبدادية في قواعد الهرم الاجتماعي وترتبط بامتيازات مباشرة تفضيلية داخل هذا الهرم و"حقوق عامة" للمنتسبين إلى "خير أمة أخرجت للناس": "وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها" (الفتح 19). هذا المنطق، يدفع بالعلاقات الاقتصادية إلى مستوى القدرية ويثبت الاستبداد الاجتماعي كوسيلة تحقيق للذات، فالرزق والغنيمة موضوع مرهون بالإرادة الإلهية (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء

ويقدر -سبأ 36-، أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء
ويقدر -الروم 37-، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر -الشورى 12
والوعد 36... الخ) أما الطاعة فمرهونة بإعادة إنتاج العلاقات
القمعية في المجتمع القائم كواجب ديني. الأمر الذي يجعل
"الأمر الواقع" مقبولاً طوعاً مادام الأمر الواقع لا يتصدى
للعقيدة بحد ذاتها.. الأشعري يلخص هذا المنطق بمقطع "معبر
جداً": "البلايا منها ما يجب الصبر عليها كالمصائب من
الأمراض والأسقام وفي الأموال والأولاد... وما أشبه ذلك،
ومنها ما لا يجب الصبر عليها كالكفر وسائر المعاصي" (اللمع
ص45)، ولا يخفى في هذه المنظومة السلفية اعتبار قمع الآخر
شرط من شروط استمرار آلياتها الداخلية حيث تقتطع النصوص
القرآنية تعسفاً لتعطي أكثر المعاني قسوة وعنفاً في العلاقات
بين البشرية: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم -التوبة 5-،
فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون -التوبة 12...
الخ).

الترهيب والترغيب

يعتمد القرآن المكي بشكل أساسي تأكيد فكرة التوحيد -
الوحي - النبوة، ومن أهم طرائقه تبني "تاريخ الأنبياء" عبر إعادة
صياغة المرجع الديني وفق التصور الإسلامي من جهة
وتوظيف القصص -كتابية كانت أم شعبية- توظيفاً إيديولوجياً
مباشراً في خدمة الدين (يعبر عنه سيد قطب بـ "خضوع القصة
للغرض الديني" - التصوير الفني في القرآن ص 128)، ومن
البساطة رؤية محور القصص الديني في القرآن: العقاب
والثواب وراء كل جملة. الخطيئة-المعصية التي ارتكبتها آدم -
حواء أخرجتهما من الجنة، معصية إبليس حرّمته منها إلى
الأبد. أما البشر، فما زال أمامهم الفرصة للعودة إلى الفردوس
المفقود، ثواباً لما يقومون به في حياتهم الدنيا تحضيراً لليوم
الآخر. في هذه الحياة الأرضية ثمة رصد إلهي دقيق لما يفعله
الإنسان المراقب حيث يعلم الله "ما توسوس به نفسه" وهو
"أقرب إليه من حبل الوريد" يرصد حركاته ملتقيان "عن اليمين
وعن الشمال قعيد"، وهو لا يلفظ كلمة إلا "لديه رقيب عتيد"...
الخ (سورة ق 16، 17، 18، 21).

هذه الرقابة، تصب في مسألة "الحساب": أي في ثنائية الثواب والعقاب اليهودي-مسيحية والتي تبلغ ذروتها مع بلوغ الله في القرآن "كمالا أرقى" أي بتعبير فيورباخ "إفقار الإنسان أكثر فأكثر". هذه الثنائية التي يعبر عنها المنطق الإسلامي بالترهيب والترغيب، الوعد والوعيد، كمنطق متكامل، دنيوي وآخروي "عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أذى" (فصلت 16): في الأرض: الترهيب عبر العقوبة التاريخية. لمن حارب الأنبياء والأديان: الصاعقة، الريح الصرصر العاتية، الرجفة، المسخ، الريح الحاملة للحصباء.. والوعيد لمن يحارب النبوة والإسلام.

الترغيب عبر المثوبة لنوح وأنصاره (الطوفان)، إنقاذ الأنبياء من شر قومهم، إنقاذ المؤمنات من العقم، البركة.

في السماء: الترهيب بالنار: وجوه غيرة ترهقها قنطرة، شجرة الزقوم طعام الأثيم، الأغلال في أعناقهم السلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون.

الترغيب بالجنة: وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة، في جنات وعيون، زوجناهم بحور عين، إنها من خمر لذة للشاربين وإنها من عسل مصفى.

الترهيب والترغيب يجسد أولاً الوجدانية، وحدة خصائص الأرواح الخيرة والشريرة ما قبل الإسلامية في إله واحد كلي القدرة "إني أنا الغفور الرحيم وإن عذابي هو العذاب الأليم (الحجر 49-50) "هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير" (الأنعام 18) إلخ... وحدانية "الحق" و"الفعل" التي تحدد ثنائية إيديولوجية ومجتمعية في آن: الإيمان-الكفر، الإسلام-الجاهلية، ثنائية تجد في الترغيب والترهيب مادتها ومكملها الرادع الضروري ضمن المنطق التبادلي المشار إليه "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم: تؤمنون بالله ورسوله" "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" (التوبة 111) أو: "يوما عبوساً قمطيراً" (الإنسان 10).

لا يملك منطق الترهيب والترغيب معناه الواقعي المتكامل إلا عبر إجراءات واقعية معاشة، قبل تناولها، نجد من الضروري التوقف عند افتراق أساسي بين الوثنية العربية

والشريعة الإسلامية، فبالإضافة إلى المنطق الثنوي الإسلامي السلفي، يدخل مفهوم زجر السلطة "ولكم في القصاص من حياة يا أولي الألباب"، سلطان الإيديولوجية محققاً بسلطان الدنيا، الإسلام كدولة. الافتراق، هنا يشمل ببعض مناحيه الإسلام المكي، وليس فقط الوثنية العربية، الاستبداد الأرضي عادلاً كان أم جائراً يدخل منظومة الدين-الدولة" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون، الكافرون.. (المائدة 44، 47). حيث تفرّخ إيديولوجية السلطان (النبي، الخليفة، ولي الأمر...) ظل الله في الأرض واقعة الله ظل السلطان في السماء. السلطة الأرضية كعامل ديمومة، بشكل مباشر أو غير مباشر، للإيديولوجية الدينية. افتراق آخر أيضاً: نشر الدين، نشر حكم الله، يدخل منظومة الاعتقاد. كما يلاحظ مارك أوجيه (عبرية الوثنية ص 14) لم تكن الوثنية يوماً تبشيرية، الإسلام هنا، وكما كان سلفه (اليهودي-مسيحية) دين تبشير وفتح، بالقوة أو بالسلم، لا يهم، المهم إعلاء كلمة الله لتشمل كل البشر وفرض حاكمية الله عبر "خير أمة أخرجت للناس". "ليكون الدين كله لله".

سورة الكافرون المكية "لكم دينكم ولي دين" تذهب مع حقبتها
"فقاتلوا أئمة الكفر" (التوبة 12) تصبح mot d'ordre ورغم
أن القرآن يهجو في القصص الديني فرعون الذي زجر هارون
وموسى بقوله "لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم
أجمعين" (الشعراء 49) فإن الإسلام منتصراً يعلن حكمه في
أواخر حقبة المدينة بصيغة مشابهة: "إنما جزاء الذين يحاربون
الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو
تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض" (المائدة
33) مع فارق هام: حكم فرعون كان حكماً وضعياً مرتبطاً
بالزمان والمكان، "بالاجتماع والسياسة"، الحد الإسلامي قائم
في المنطق الإسلاموي إلى يوم الساعة؟ إذن، استكمل منطق
الترهيب والترغيب بعده الأرضي مع قيام سلطة إسلامية فعلاً:
الحدود والعقوبة (الترهيب) والغنمة والمثوبة والعبادة الطقسية
(الترغيب).

الفرق الإسلامية، ومنذ المعتزلة والشيعة الأوائل، تابعت هذا
المنطق في الحياة الواقعية والإيديولوجية وانطلاقاً من صورته
المنقولة في الأحكام المدنية القرآنية والمجتمع الإسلامي الأول

ليصبح في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وضمن تدوينات الفرق الأرثوذكسية (سنة وشيعة) منهجاً شمولياً لتعليم الإسلام وتحقيق "الحياة الإسلامية". التفسير الأولى وكتب السنن زرعت المثوبة والعقوبة في الفتاوي والشروح وكتابة الأحاديث حيث أرضية ديمومة الإيديولوجية، استمرار الشعائرية الدينية، قمع الآخر... الخ، اعتمدت هذا المنطق سلاحاً يومياً، وإن كانت المدونات الأولى في هذا الشأن لا تشمل جملة الأحاديث والقصص والآيات، فقد أمكن للأئمة المتأخرين، دون صعوبة تذكر، إعادة ترتيب معظم الأحاديث التي وصلتهم فيما سيعرف "بالترهيب والترغيب في الحديث الشريف".

الحدود

ترتبط الحدود، أو ما يمكن تسميته بلغتنا المعاصرة "قانون العقوبات الإسلامي"، ترتبط بالمعصية، باختراق الممنوع أو المحرم الإسلامي، وترضخ، غالباً بشكل مباشر لرؤية النبي محمد نفسه للتاريخ من نهايته. أي اعتبار لحظة غياب النبوة نهاية التاريخ، باعتبار الحلول المحمدية لمجتمع قائم فعلاً

(المدينة) حلولاً صالحة لكل زمان ومكان. قطع يد السارق، قتل
القاتل، جلد الزاني... الخ، باختصار، الحدود الإسلامية هي
حدود ثابتة وعامة، وإن كان لعمر بن الخطاب أن يثير مشكلة
الدافع إلى ارتكاب الممنوع، فإن واحداً من المسلمين لم يجرؤ
بعده على إلغاء عقوبة الحد أو تغييرها بعد مرور خمسة عشر
قروناً هجرياً. ضاعت صرخات الشيخ عبد الله العلايلي
والمصلحين في الإسلام (الأحكام بغاياتها لا بحرفيتها) - كتاب
أين الخطأ للعلايلي!!

على العكس فقد تثلثت عقوبة القتل (القاتل، المرتد، الزاني
المحصن) وعقوبة الجلد (الزنا، الخمر، المخدرات) وأصبح من
الصعب رصد العقوبات الحدود في وهابية آل سعود وخمينية
إيران.

المنحى التعسفي في الحدود يفسح المجال لتعزيز أشكال
التعسف الاجتماعي بتعبيراته السلطوية المختلفة دولانية كانت
أو لا دولانية، والعنف القانوني يتعايش مع، يغذي ويتغذى من
أشكال العنف الاجتماعي، ليس بالصدفة أن رجم المتزوج
والمتزوجة، رغم ذكر القرآن للحجر عقوبة (انظر "النقطة" 3/2

-سقوطات قرآنية-) لم يُناقش على الصعيد الإسلامي، وليس بالصدفة أيضاً، أن أشكال "الثأر" الاجتماعية المختلفة تعشعش من ما قبل الإسلام إلى يومنا الراهن، رغم اعتبار الإسلام "النظري" لها بالجاهلية، بل إن ما يجري فعلاً، هو التواطؤ الدائم بين الإيديولوجية الإسلامية والأعراف التعسفية السائدة باعتبار أحدهما توأم الآخر، أعلن الاثنان ذلك أم لم يعلننا. حيث يطرح العرف نفسه باستمرار في المجتمع العربي-الإسلامي بوصفه الإسلام نفسه ويحتفظ أئمة الإسلام لأنفسهم بهامش "المنقذ" في الجنوح التعسفي الاجتماعي دون أن ينالوا من منظومة القيم الاجتماعية العنفية نفسها في سؤدها وهيمنتها (الختان في مصر أبلغ مثال على هذه المسألة، لم يتوقف أي إسلاماني طوال 14 قرناً عند جريمة استئصال البظر للمرأة، وحين أثارت النساء المصريات والمنظمات الصحية العالمية هذه القضية، تداعت صحيفتا "الدعوة" و"الاعتصام" الإخوانيتين للدفاع عن الختان: "مكرمة النساء، يضبط اشتهاهن ويكبح جماح استهتارهن" مع المطالبة بعدم "الإسراف" في القطع؟؟)

السنن والفرائض

بإحصاء بسيط نجد أن عمدة رواية الحديث والفقهاء الأرثوذكسي قد عاشوا في المئة والخمسين عاماً التي أعطت رواد ما يسمى بـ"النهضة"، حيث شكّل هؤلاء بالفعل صخرة المقاومة لتلك الحركة الواسعة المتعددة المناحي التي اقتحمت دار الإسلام بشيطان البدعة.

حتى إشراقة "النهضة"، كان التوسع الإسلامي قد حقق المجال الحيوي المكاني للتفاعل الثقافي-الاجتماعي الواسع. إلا أن الازدهار الفكري، سيكون بشكل أساسي ممن لم يجمعوا صفتي العروبة والإسلام (من أبناء السبايا كما يروق للبغداي هجاءهم) البدعة، ستصبح مصيبة مصائب الأرثوذكسية الإسلامية، لغياب هذه الكلمة من القرآن فإن أكثر من خمسين حديثاً ستنسب إلى النبي محمد في الحرب الطاحنة مع الخارجين عن منطق بناء الإيديولوجية الشمولية الدينية: "كل بدعة ضلال"، "ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة"، "إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته"، "لا يقبل الله لصاحب بدعة صوماً ولا صلاةً ولا حجاً ولا عمرةً

ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً يخرج من الإسلام كما يخرج
الشعر من العجين" ... إلخ (انظر البخاري، مسلم، أبو داود،
ابن ماجه، أحمد، البراز ...).

ولكن ما هي السنن؟ كيف يمكن "سد باب الفتنة" وكيف
يمكن إحكام التوتاليتارية العقيدية لمواجهة الزندقة والمجون
والإلحاد والقرمطة والترجمة والفكر الحر الخ؟ هنا سيبدأ ذاك
العمل الإيديولوجي الواسع لاستحواذ الحياة "الدنيا"، إلغاء مجال
حركة الإنسان، تأصيل الإلتباع عبر الممارسة لقتل أي زمن
حر أو سكرة حرة للإبداع. يذكر ابن النديم في "الفهرست" أكثر
من أربعين كتاباً ومجلداً بعنوان "السنن" و"الفرائض" كتبت في
هذه المرحلة ومئات الكتب في السلوكيات، كيف يمكن ربط كل
كبيرة وصغيرة في حياة الإنسان بالمعطى الديني؟ كيف يمكن
ملاحقته عندما يريد أن يبول ولحظة انتهاء البول وغسل يديه
بعد التبول، كيف يغسل وجهه أو يتوضأ، كيف يصلي وينال
واحدة من الحور العين إذا رفع قشة من أرض المسجد، عند
عزمه على ممارسة الجنس وأثناء ذلك وبعده، يوم يبيع أو
يُباع، عندما ينام أو يستيقظ، عندما يقرأ أو يكتب الخ...

السنن تخبر، القياس على القرآن والسنة يكملان، الاجتهاد كأسير للثلاثة بأحسن الأحوال (قبل إغلاق باب) يستدرك... كل هامش لا تصله سنن الله ورسوله وفقهاء في خلقه في الحياة اليومية يمكن أن يتسلل منه الشيطان، هذا الشيطان الذي أصبح تعريفه أشمل بكثير من رفض السجود للإنسان بعد خلقه: "أعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة: شبهة إبليس لعنة الله ومصدرها استبداده بالرأي واختياره الهوى في معارضة الأمر... (الشهرستاني، الملل والنحل ج 1 ص 16).

ليس غريباً، في هذه الحملة التي تخطط العقيدة بالشمولية والبروباغندا، أن نجد صفات يوم الساعة في الحديث هي نفسها سمات العصر في الحقبة العباسية الأولى، وليس من الغريب أيضاً أن نشهد توافقاً في الأحاديث المدونة مع العديد من الروابط الاجتماعية السائدة في المناطق التي لم تصلها رياح البدع، كونها كانت في الحقيقة، القاعدة البشرية الأساسية لرواد الإيديولوجية الأرثوذكسية، والتي نظموا عبرها وبها، وباستمرار، هجومهم على شيطان البدعة ورموزها. إلا أن ما يستحق التوقف هنا، تلك الاستمرارية الإيديولوجية، حيث يبدو

للمشّح، أن الجنين الإيديولوجي هو الابن البار للعقيدة ليس إلا، حارسها، والأمين على فرقتها الناجية. (تماماً كما يظهر اليوم أن السلف "المعاصر" امتداد منطقي للخلف الأرثوذكسي، فمن ابن حنبل ثم ابن تيمية، إلى المودودي وقطب والصدر، حسبك فقط أن تغير الاسم، أوليست هذه هي القصة نفسها؟).

لو بدأنا من البيضة، نجد أن الإسلام، وبهذا يتقاطع مع الأصولية اليهودية، دين شعائري بآتم ما للكلمة من معنى، الشعائر تدخل الحياة اليومية، بل تعيد تنظيم هذه الحياة على أساس وجودها (الصلوات الخمس، الوجبات الثلاث؟) عندما كنا صغاراً كانوا يقولون لنا: الإنسان يتغذى ليعيش ولا يعيش ليتغذى، باعتبار الإسلاميين للشعائر غذاء الروح والجسم، المعادلة تصبح معكوسة: الإنسان يعيش ليتغذى كون الحياة أولاً وأخيراً: عبادة "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي لله" (الأنعام 1962) "واعبد ربك حتى يأتيتك اليقين" (الحجر 99) "اتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا" (التغابن 16) الخ... كل هذه الآيات تصب أولاً في رفعة مفهوم العبادة عن صغائر الحياة

المادية فتقوى الله في إقامة العدل ومقاومة الظلم وإعمال العقل ومقاومة غرائز القتل والأذى إلخ وليس في طوفان الشعائر، يمكن أن نقتطع من القرآن الكريم أكثر مما يقتطعون بكثير لتحجيم فكرة الإرادة الحرة ونضج الشخصية الإنسانية. كما فعل التكفيريون في آية السيف فألغوا ونسخوا بها أكثر من 140 آية... من المعروف أن أي نص ديني يمكن تطويعه وتحميله فوق معناه ومبناه وطاقته...

الشعائر المكثفة تدخل الحياة لتحكمها، لترسمها، لا لتكملها، العبادات التطبيقية وتوابعها تحكم المجتمع بوظيفة عملية حياتية كشرط لإسلامه المعلن. يتوقف السؤال التقليدي هنا حول مدى إيمان الناس، كون السؤال لا يمس شعائرية الحياة نفسها، كذلك يصبح غير ذي فحوى التساؤل عن مدى صحة عاشوراء أو زيارة القبور وكرامات الأولياء، كون المشكلة لم تعد في حقيقة إتيان القرآن بالطقس وإنما في وجوده فعلاً.

هنا تتأقلم الإيديولوجية مع الشعائرية الشعبية، مع الطقوس الموجودة، مع الخضر أو مع العباس ذو الدم الحار، بقدر ما تنجح ليس فقط في استحوائها، وإنما في استعمالها أيضاً.

ويشكل التأقلم الاجتماعي مع الشعائر الدينية رفقاً للمؤدج، وللحياة الدينية نفسها عبر التداخل بين الإيديولوجية والمصالح المباشرة للناس أو أعرفهم (الحج مثال لاستمرارية هذا القانون العرفي ما قبل الإسلامي، ليس فقط لقاء الكعبة بل وتجارة تكسبونها، الأمثال الشعبية تعبر عن هذا التداخل، من تركيا إلى المغرب: "هم زيارات هم تجارات"، "حجة وحويجة"). إلا أن هذا التأقلم الشعائري بحد ذاته، مدعماً من السلطات السياسية، الاجتماعية، العرفية والدينية يشكل سجناً من سجون العالم الإسلامي حيث الأفراد والجماعات هنا ممنوعين Conditionnés، حرية التحرك والاختيار تغيب مع الهيمنة الشعائرية التي تجسد بديمومتها نبذ الاستثناء، الخروج (كوميديا أم مأساة، ثمة مثل معروف يردده المتسكعون والسكران في شهر رمضان عندما تضيق بهم المدينة: "إذا جن قومك عقلك ما ينفعك"، شبه القدرية الشعائرية المعممة تتجب شبه القدرية السلبية الطريدة في مدن تزواج الخداع الاجتماعي مع "الطهارة" الطقسية).

الغنائم

"بعد خمسة عشر شهراً من الهجرة، عادت سرية عبدالله بن جحش غانمة من هجومها على قافلة تجارية مكية (تقريباً أوائل تشرين الأول 633هـ) واقترح ابن جحش على صاحبه ومن ثم على محمد بن عبدالله أن يأخذ المقاتلون أربعة أخماس الغنيمة وأن يعطى خمسها "لله ورسوله" فأقرهم النبي محمد على ذلك، وبعد أقر القرآن "واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسهُ وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" (الأنفال 41) فيما جعل الآلية الأساسية في اقتصاد الغزوات تعتمد على اعتبار المحارب (القوة المادية في القتال والأداة المحققة لرأس المال) صاحب الحق بأربعة أخماس ما يغنم. هذا المبدأ الأساسي يعني عملياً أن الفئة المقاتلة، ليست فحسب أداة بيد النبوة أو جهاز أو فئة أو طبقة... الخ، وإنما هي جزء من الجهاز السائد العام بالمعنى المباشر للكلمة وهنا تبدو لنا مسألة الدولة، كجهاز سلطة بمعناها الطبقي المتداخل بها... حيث مكونات الجهاز العسكري تمتلك وبشكل مباشر إمكانية مراكمة رأس المال عبر عملها (القتال بالنسبة للمحارب)..

الاشتراك بالقتال كعملية عسكرية اقتصادية (مناع، المجتمع العربي-الإسلامي من محمد إلى علي) الأمر الذي يشكل استمرارية لمبدأ الغزو في المجتمع العبودي الجماعي في الجزيرة العربية (ثلاثة أرباع للمقاتل وربع لشيوخ القبيلة) في المجتمع الدولة ما فوق القربوي؟

بدأنا بهذا المقطع، كونه من الهذر، أن ننكر المهزلة التي يخوض بها بعض الاقتصاديين العرب والغربيين، الذين يحملون بجعبتهم معالم الاقتصاد الرأسمالي لتفصيل المجتمع العربي الإسلامي على مقاسها، أو نخوض مع الإسلاميين حول "نظرية اقتصادية إسلامية" تقوم على النص والأنموذج النبوي والراشدي. فالغزوات الأولى، كانت مخرجاً لأزمة معاشية داخلية عاشتها المدينة في مطلع الهجرة، ولم تلبث أن تصبح عماداً لموارد الجماعة الإسلامية وهي بالأساس تقوم على طفيلية الجماعة باعتمادها نهب أو مصادرة، موارد الآخر. الغنيمة في الأصل، ما يغنمه المقاتل من خصمه المهزوم، أو ممن تحت "حمايته ووصايته" (تماماً كما كان الأمر قبل الإسلام واستمر به) والمورد الأساسي لبيت المال وثروة

المسلمين في الفترة المحببة لفؤاد الإسلاميين (عهد محمد والخلافة الراشدية) هو قوة عمل غير المسلمين، ومن المضحك أن تجري مقارنة الزكاة الداخلية (2.5%) بالغنيمة الخارجية (80%).

آلية الغنائم، ما أسمىناه اقتصاد الحرب، آلية انطبع بها المجتمع بكل مقوماته مؤثراً ومتأثراً بها: المواطنة وتعدد الزوجات، إنتاج العبيد، التزاوج مع غير العرب، اعتناق الإسلام... الخ. وعلينا انتظار أكثر من قرن، تخلله تهمة آل البيت، واعتناق الإسلام الواسع هرباً من الجزية لتبدأ المسألة تأخذ أبعاداً أخرى، حيث الأرثوذكسية الشيعية باتساعها كجهاز، وبُعدها عن بيت المال بدأت تؤدج للغة الغنيمة الداخلية، باعتبار كل ما يغنمه الإنسان في حياته من عمل أو حرب لله خمسة والرسول (لآل البيت بعد موت الرسول؟؟) وكما يصبح الشراكسة من قريش (أنظر: كتاب يشتمل على نسب الجراكسة من قريش، وهم من سلالة إسماعيل-مخطوط باريس 15 60) يصبح كل أصحاب العمائم من آل البيت. أما على صعيد الخلافة، فقد أصبح من الضروري، وقد تحولت مادة الغنائم

إلى أقلية في دار الإسلام أن تتصدر كلمتا: الخراج والأموال،
كتب "الاقتصاد الإسلامي".

الإمامة

تجد فكرة الكمال الإلهي تحقيقها السلطوي الأرضي في
المستبد "الكامل"، وتقزيم الإنسان يجد مكمله المنطقي في
قطيعية المجتمع، وحاجة الجماعة إلى إمام، خليفة، فقيه،
مخلص، مسيح، مهدي منتظر الخ. النبوة كمفهوم لغوي خير
تعبير عن مفهوم الحاكم المتميز المحكومين العامة حيث العامة
موضوع الخاص (لابد للفقيه من سفيه يناضل عنه ويحامي
عليه - الشافعي) ولعل إحدى خصائص نقد الدين في القرن
3هـ/9م اعتبار نقد النبوة أساس نقد الدين.

المستبد هو التجسيد الواقعي للهرم الاجتماعي-سياسي
الواقعي، والمستبد-الخليفة هو الباب العالي في مجتمع تتراكم
فيه أبواب التوتاليتارية والاستبدادية حيث إعادة إنتاج الاستبداد
تتطلق من الروابط الاجتماعية نفسها وتتركز في السلطة

"المركزية". بهذا المنطق، نقيض الاستبداد الجائر، هو الاستبداد العادل، أي أن المستبد الجائر يتعايش مع أسرته الأرضية وما فوق الأرضية في الإيديولوجية الإسلامية.

لا يخرج "الإصلاح" الديني عن الديني في هذه الحلقة المغلقة، حيث يلتقي المعتزلة وابن حنبل البنا-الصدر والأفغاني-عبده: البحث عن "حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة وتخضع لسلطته النفوس" (الأفغاني-عبده) وليس من الغريب أن يدخل مصطلح "المستبد العادل" القاموس الإسلامي عبر "الإصلاح" الديني (انظر محمد عبده، المؤلفات الكاملة، الجزء الأول).

"تعاطي الناس الحق فيما بينهم" (النجدات-الخوارج) و"الناس نظائر لا يقوم بأمرهم إمام" بدعة هرطقية في المنطق الداخلي للإيديولوجية الإسلامية لما يمكن تصورها؟

لابد من وقفة هنا، عند المفهوم الشيعي "ولاية الفقيه" كونه من موضوعات الساعة (الخارجة عن نطاق الزمن): الولاية حسب التعريف الشيعي "تعني الطاعة والسيادة فالوالي من له حق الطاعة وله حق السيادة ولا يجوز بحكم العقل-طاعة غيره

والولاء لغيره" (ثقافة الثورة، الشهيد، العدد 79 شباط 1982) والفقيه "الرجل الذي يملك القدرة على استنباط الحكم الشرعي من أدلته المعروفة أي الكتاب والسنة والفقيه صفات مذكورة في الكتب الفقهية والواجب الأساسي لهذا الرجل (هو إقامة حكم الله في المجتمع) والإشراف على تطبيق رسالة الله... فهو القيم على التجربة الإسلامية وهو رأس الهرم في (السلطة) في الفكر السياسي الإسلامي... ويجدر هنا أن نسجل بعض النصوص حول هذه النقطة المهمة من الثقافة الثورية "إن العلماء أمناء الرسل" و"العلماء ورثة الأنبياء" و"العلماء خلفاء الرسل" وهذه النصوص مجتمعة تصرح بأن الفقيه هو صاحب الحق في قيادة المجتمع كالنبي... لا فرق إلا في بعض القضايا الخاصة بمنصب النبوة... وولاية الفقيه هي الممثل الشرعي عن ولاية الله على الناس من هنا وجبت طاعتهم. قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم 4/59" (المصدر نفسه).

يلخص هذا النص بحق، وعلى الأقل خمسة نصوص "مرجعية" بهذا الشأن (البيع و"الحكومة الإسلامية" للخميني،

المنطق الإسلامي وأصوله لمحمد تقي المدرس، دستور الجمهورية الإسلامية في إيران، وكتاب أصول الكافي).

يكمن الاستثناء الشيعي في الأرثوذكسية الإسلامية في السلطات المادية المباشرة لرجال الدين فالجهاز الشيعي المحدد عنه بداية نشأته في المدن الدينية (قم والنجف بشكل أساسي) والمعمر منذ القرن السادس عشر ببركات شاه الحقبة إسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية بالسيف، امتلك باستمرار تركيباً "فاتيكانياً" داخلياً وعلاقة ضرائبية تمويلية مباشرة مع المؤمنين عبر الخمس المقتطع من واردتهم السنوية. الجهاز الشيعي لم يكن موضوع اضطهاد بقدر ما شكل "دولة داخل الدولة" والجهاز الشيعي إبان سقوط الشاه يمثل أكبر مؤسسة مراتبية منظمة خارج جهاز الدولة في إيران (حوالي 180 ألف شخص) ومن هنا فهو جسد التركيبة الاستبدادية وليس خارجها، لم يخرج دوره عن إعادة إنتاج الاستبداد الاجتماعي الإيديولوجي عبر خمسة قرون على الأقل، وطالما لم تمس مصالحه مباشرة فقد تمسك بالهدنة الجعفرية "لا تذلو رقابكم بترك طاعة سلطانكم

فان كان عادلاً فاسألوا الله بقاءه وإن كان جائراً فاسألوا الله إصلاحه" (عقائد الإمامية ص 154).

المنطق الخميني يتجسد في الحكم الاستبدادي المعمم في السلطة ويحقق استمرارية داخل العلاقات "الحزبية" في المعارضة، في الوفاق المعاصر بين الطابع الفاشي للحزب والتركيب الاستبدادي لعلاقات الجماعة الداخلية.

يتضح ذلك في لغة حزب الدعوة -"البعث المعارض في العراق"-: "إن وجود ولاية الفقيه في هذه المرحلة يعني تكميل عنصر وجود الطاعة في الأعمال الحزبية... ولما كانت الدعوة المباركة تعتقد بولاية الفقيه فهي تبني تنظيمها وعملها على هذا الأساس". لا يذكرنا هذا المنطق فحسب "حزب الله" في أدبيات الإخوان المسلمين -"البعث المعارض في سوريا"- حيث دعوة الإخوان المسلمين هي الصيغة الكاملة لتعم رحمة الإسلام هذا العالم (سعيد حوى: المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين ص17) (الجماعة التي وقع عليها القدر لإنقاذ العالمين- رسالة الإخوان) و"حزب الله كتنظيم يهمله أكثر ما يهمله الطاعة والتقوى ولقد قال كل رسول لقومه (فاتقوا الله وأطيعون). آل

عمران 50، الشعراء 108-110-126-131-144-150-
163-179، الزخرف 63، نوح 3 وبالطاعة يتميز المسلم
المنظم عن غيره إذا المنظم عنده قدرة على الجندية والطاعة"
(المصدر نفسه، ص 149). لا يذكرنا بهذا فحسب، وإنما
يقودنا إلى عقم الطاعة على كل الأصعدة، اللهم إلا صعيد
إنتاج أشكال أكثر عبودية في المجتمع. حيث لا يشترط لذلك
"سماوية" الدين - الطائفة (الطاعة الحديدية عند لينين - ما العمل
تحقق المجال الإيديولوجي الخصب للخضوع المجتمعي الأعم،
ويبقى بالنسبة للستاليني الشرقي، أن المشكلة الأكبر، كون
الطاعة الإسلامية، أعمق جذوراً من طاعته الحديدية، مما يحدد
سقفه في طوائف صغيرة وإنتاج حرفي).*

* مقطع مجتزأ من مخطوط "المجتمع العربي الإسلامي
من محمد إلى علي" (قبل أن ينشر في منشورات الرازي، باريس
-1986) فقرة الغنائم. أما تلك المتصلة بالإمامة فتكتيف
لبعض الآراء الواردة في بحث نعمل عليه عن "الشمولية

والسلطة". الفقرة التي نرى توصلها مع ما ذكر ولم ترد لضرورة التوسع بها هي "الأمة-الرحم".

نشر هذا النص "توتاليتارية" في العدد الرابع من مجلة "النقطة" في باريس 1984. أعيد نشره في كتاب "تحديات التنوير" الصادر عن منشورات الجمل - كولونيا في 1991.

نهاية الأسطورة السلفية

"صار "السنينون" بالذات، أعني عاملي
التسنيين من شرعيين ومجاهدين ووجهاء
الطائفة، حدثا طاحنا لكل سنة، لا تضبطه
قواعد من أي نوع، إداري توحش ومبدعي
تعذيب وقتلة سعداء، ولم تعد السنة غير
رمز أو مادة تغليف لحدث "إدارة التوحش".
اعتقد أن داعش والقاعدة أوثق صلة بموت
السنة كتقليد حي منهما بتحققها."

ياسين الحاج صالح،

الإمبرياليون المقهورون، 2019- ص 102-103

في مقارنة لا تاريخية وفي مواجهة مباشرة مع العقلانية والحكمة
والفلسفة، جرى وضع أساس المدرسة السلفية على يد ابن تيمية
وتلميذه ابن القيم الجوزية. لم يكن التجميع الكمي التيمي الذي يرد
فيه عن كل ما جعل العالم يتحدث عن نهضة الشرق قبل ألف

عام، يتناسب إلا مع حالة الانحطاط والجهل والتخلف الثقافي التي سادت عصره، والتي كان الأبسط والأسهل لكل طرح غوغائي أن يقوم على مبدأ: "يكن سبب كل مأسينا في التخلي عن ديننا"... وكأن عامة الناس قد تركوا دين الإسلام، واتبعوا الفرق الضالة والباطنية "المنحرفة" عن السلف الصالح والمجتمع الراشدي!.

بعد عقود من البحث والدراسة والقراءة في كل ما نسب للنبي محمد من حديث أو فعل، تصحيحاً أو تنقيحاً أو مقارنة، وقف الشيخ ناصر الدين الألباني أمام "فتنة التكفير" يبحث عن تفسير أو تأويل يرد به على التكفيريين الجدد، بنفس الآليات والمرجعيات التي استخدمتها السلفية في بناء قلعتها الإيديولوجية المغلقة. فكتب في رسالته حول "فتنة التكفير": "أما بعد، فإن مسألة التكفير عموماً - لا للحكام فقط، بل وللمحكومين أيضاً - هي فتنة عظيمة قديمة... ومع الأسف الشديد فإن البعض من الدعاة أو المتحمسين قد يقع في الخروج عن الكتاب والسنة، ولكن باسم الكتاب والسنة"... "هذه النقطة يسهو عنها - ويغفل عن ضرورتها ولزومها - كثير من الخاصة، فضلاً عن هؤلاء الذين عرفوا بـ

(جماعة التكفير)، أو بعض أنواع الجماعات التي تنسب نفسها للجهاد وهي في حقيقتها من فلول التكفير".

منذ الحملة الجهادية الأفغانية، ولكن بشكل خاص مع ولادة تنظيم القاعدة، أصيب الشيخ الألباني بهزة وجدانية عميقة، عندما شعر بأن ما قام به طيلة حياته، من تنقيحات لأحاديث موضوعة وتصحيحات لأحاديث "حسنة" أو "صحيحة"، إنما كانت ضمن المنطق التجميعي التيمي (نسبة لابن تيمية)، الذي أخضع الإيمان والقرآن لميراث الأحاديث والروايات التي تجمعت وصارت الأساس للتكفير والتفسير والبناء الإيديولوجي لما يسمى أهل السنة والجماعة. والتي استعملها التكفيريين، سندا وحجة، في ثلاثية التكفير والتحريم والتفجير. فعاد في آخر حياته يطالب الدعاة:

1- أولا أن يبدؤوا بتصفية هذا الإسلام مما دخل فيه.

2- الثاني : أن يقترن مع هذه التصفية تربية الشباب المسلم

الناشئ على هذا الإسلام المصفى.

يشرح محمد بن صالح العثيمين (ابن عثيمين) جملة الألباني في تصفية الإسلام بالقول: "الشيخ الألباني طالب أن يصفى الإسلام

أولاً، لأن الإسلام فيه شوائب في العقيدة، شوائب في الأخلاق، شوائب في العبادات، شوائب في المعاملات..."

هنا نعيد طرح السؤال الذي طرحه يوماً الشيخ عبد الله العلايلي: "أين الخطأ؟ وكيف جرى استخدام الشيخ الألباني وابن باز وابن عثيمين وغيرهم من قبل التكفيريين؟

منذ الولادة، اعتمد من أطلق على نفسه "أهل السنة والجماعة" على تجميع الأحاديث والمنسوبات إلى الحقبة النبوية وما تلاها. وقد تحولت عملية التجميع هذه إلى اغتيال للنص وقصته وقيمه التاريخية وعزل له عن السياق السياسي والاجتماعي الذي وقع فيه (مثل أحاديث القتال، أو قيام الدولة، أو التعامل مع الحكام). ومنذ ابن تيمية إلى اليوم، جرى تفكيك المتن وصار كل نص جزيرة مستقلة حمالة أوجه يمكن استخدامها في قبول الحاكم وطاعته أو تكفيره والقيام عليه، تكفير طوائف وفرق إسلامية لخلافات سياسية أو عقائدية معها. لم تعد مشكلة ابن عثيمين وابن باز والألباني إلخ، في التحقيق في عدم انقطاع السند في رواية لا يوجد أصلاً ما يؤكد، ولئلا أسف فكل ما يتعلق بمسائل جنائية، وليس وحسب قضايا حيض ونفاس، من رجم وقتل لزانة

محصنة أو "تارك" لدينه، ليس لدينا ما يؤكد ما وتبقى موضوع
عنينة (عن ... عن .. عن.. قال) قابلة للرفض والقبول. لكن
من اللحظة التي تصبح فيها الأدوات الإيديولوجية والنصوص
المستند عليها أصولاً عقائدية قطعية ومقدسة، يصبح مجرد النقاش
في صحتها موضوع محاسبة بل وتكفير. فالجماعات التكفيرية
تتعامل مع الأحاديث المنسوبة للنبي كأوامر تشغيلية مباشرة عابرة
للزمان والمكان... على سبيل المثال لا الحصر:

- حديث "افتراق الأمة" (الفرقة الناجية)²³: الحديث الذي ينص
على تفكك الأمة إلى 73 فرقة كلها في النار إلا واحدة. بمجرد

²³ في مقالة بعنوان: أهل السنة والجماعة، الخصائص والمعتقدات، على موقع إسلام ويب
في 2004، يكتف صاحب المقال التعريف بالقول:

"عرف أهل السنة والجماعة باللقاب هي علامات على صفاتهم، وهي في مجملها مأخوذة
من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فمن تلك الألقاب:

1- الفرقة الناجية: وهذا الوصف مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي
الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ خَذُوا النُّعْلَ بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّهُ علانية؛ لكان في أُمَّتِي مَنْ
يصنع ذلك، وإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مَلَّةً، وَتَفَرَّقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثَ
وَسَبْعِينَ مَلَّةً؛ كُلُّهُمْ فِي النَّارِ؛ إِلَّا مَلَّةً وَاحِدَةً. قالوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: مَا أَنَا
عليه وَأَصْحَابِي) رواه الترمذي وحسنه الألباني . ووجه الدلالة أنه وصف الفرق كلها

أن ينال هذا الحديث حكم "الصحيح" أو "الحسن"، منذ بعد ابن تيمية إلى الألباني، تأخذه الجماعة التكفيرية وتسقط الوصف على نفسها حصرياً. النتيجة التلقائية: تحويل الـ 72 فرقة الأخرى (باقي المسلمين) إلى ضالين أو خارجين عن الملة، مما يشرعن استباحتهم.

بالحلاك إلا واحدة حازت صفة النجاة واستبذت بها، وهي الجماعة التي اتصفت باتباع منهج السلف في الأقوال والأعمال والاعتقادات.

2- الطائفة المنصورة : وهذا الاسم مأخوذ من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) وفي رواية : (لا تزال طائفة من أمتي قائمون بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس) رواه **مسلم** في صحيحه، ووجه الدلالة أن هذه الطائفة وإن مرت بها مراحل استضعاف إلا أن مآلها إلى النصر والتمكين إن شاء الله، وهي تمتاز بثبات عجيب في وجه المخالفين والمخذلين قائمة بأمر الله لا تأخذها في الله لومة لائم.

3- السلف الصالح : وسموا بذلك لاتباعهم نهج الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة الهدى في القرون الثلاثة المفضلة التي زكاها النبي صلى الله عليه وسلم وفضلها في الجملة على سائر الأمة، فقال عليه الصلاة والسلام: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) رواه **البخاري** و**مسلم** واللفظ **للبخاري** .

<https://www.islamweb.net/ar/article/66723>

• **أحاديث الملاحم والجهاد وقمع المخالفين:** يتم عزل هذه الأحاديث تماماً عن ظروفها التاريخية (كحروب الردة أو الصراعات السياسية المبكرة). وبدلاً من اعتبارها نصوصاً مرتبطة بسياقها، تصبح عقيدة مطلقة للاستخدام اليومي ضد، الحكومات والمجتمعات والجماعات المعاصرة.

• **سلطة "السلف الصالح" المطلقة :** يتم دمج مفهوم السلف الصالح بالنص النبوي، بحيث يصبح أي اختلاف فقهي أو سياسي أو عقدي مع "فهم السلف" (الذي تحدده الجماعة بنفسها) ليس مجرد اجتهد خطأ، بل هو "كفر ومروق من الدين". هذا السلف الصالح كان بشراً مثل باقي البشر، له ما له وعليه ما عليه، وإلا فما قدوة المسلم أو مكانه "الأقرب للرسول" في ما يعرف بالفتنة الكبرى أو في موقعة الجمل؟ ما هو موقف "السلف من صحابة وتابعين" من معركة كربلاء ووقعة الحرة وحصار مكة وقصفها بالمنجنيق؟ أين حصانة الصحابة والمبشرين بالجنة وهم يحملون السيوف وجها لوجه ؟

يكفي فتح "لسان العرب" لابن منظور (630-711 هـ / 1232-1311 م) وملاحظة غياب كلمة السلفية عنه مصدراً وفعلاً وتعريفاً وصفة، لملاحظة أن السلف والسلفية، هو آخر

اسم استعمل لطائفة أو فرقة إسلامية في القرون الهجرية السبعة الأولى. وإن كانت المعالم الأساسية للسلفية بأهم معانيها المعاصرة، قد تحددت منذ "الاعتقاد القادري" الصادر في عهد الخليفة العباسي القادر بالله (381 . 442هـجري- 991 . 1031م). عندما "استتاب القادر بالله أمير المؤمنين القادر بالله المبتدعة سنة 408 هـ- 1017م من فقهاء المعتزلة الحنفية فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام وأخذ خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوه حلّ بهم في النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم" (المنتظم، ج7، ص287). وبعث الخليفة بأوامره إلى الأمراء السنيين بهذا الشأن. ويضيف ابن الجوزي قائلاً: "وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود (الغزنوي) أمر أمير المؤمنين واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة (الشيعة) والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر

بلعنهم على منابر المسلمين وإبعاد كل طائفة من أهل البدع
وطردهم عن ديارهم وصار ذلك سنة في الإسلام”²⁴.

يبدأ الاعتقاد القادري بجملة التكفير والتحريم في صفوف المسلمين
ومن يعيش في ظل سلطة الخلافة: "إن هذا اعتقاد المسلمين
ومن خالفه فقد فسق وكفر". مع التأكيد على أسطورة "الفرقة
الناجية"، أي وجود إسلام حق وجماعة على حق، وما سواها باطل
وفسق وكفر: "افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت
النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث
وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قيل: ومن هي يا رسول
الله؟ قال: «مَن كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»...

لعل ما جاء في هذا الحديث وركاكته في وقائع تاريخ الديانات
الثلاث وعبر تاريخ الملل والنحل الفعلي، ما جعل حتى الشيخ
يوسف القرضاوي عاجزا عن الدفاع عن صحته، رغم حبكة الرواية
عن أبي هريرة وأنس بن مالك ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم مع
التصحيح التقليدي الذي أعتدناه من السلفيين (من ابن تيمية إلى
الألباني..). فهو يثبت قراءة مختزلة للدين، كما قلنا أعلاه، سندها

²⁴ مادة الاعتقاد القادري، موسوعة الإمامان في حقوق الإنسان، إشراف هيثم مناع، الجزء الأول، ،
طبعة ثانية، بيسان، بيروت، 2018، ص 59-63

عننة ضعيفة، تعطي شيكا مفتوحا للتكفير في أي خلاف بين الفرق حتى "السني" منها؟

خلال قرنين من الزمن، توسعت المحظورات والممنوعات عند الحنابلة لتشمل أدق تفاصيل الحياة الشخصية للمسلم مع تعدد فتاوى القتل بحق المخالفين لمن اعتبر نفسه من أهل "السنة والجماعة". مع تقديس نصوص للحديث النبوي تشمل **مسند ابن حنبل وما يعرف بالكتب الستة** (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن أبو ماجه) رغم الضعيف منها والموضوع والمتناقض مع العقل والمنطق والقرآن الكريم. إلا أن عملية أسطورة السلف كانت تتم عبر بناء "إيديولوجية سلفية سنية" تحارب البدع والفلسفة والرافضة والباطنية إلخ، وتؤكد على مفهوم الطاعة كتجسيد للانقياد والانصياع لأمر: الطاعة المشروطة على الأرقاء والعبيد في حق سادتهم، الطاعة في حق الخلق لقيام شوكة السلطان... إلا أن الطامة الكبرى في عملية الأسطورة هذه، كانت في الحرب الطائفية المذهبية التي شنتها فتاوى من أعطي لقب شيخ الإسلام بحق كل من يختلف مع تصوره

وفهمه للإسلام والعالم. واعتبار السلفيين هذه الفتاوى، مواقف قطعية ونهائية من الفلسفة والباطنية والمدارس الإسلامية المخالفة. منذ وفاة النبي، اكتمل النص القرآني وانتهت فترة السيرة النبوية. ونشأت الحاجة الملحة لمواجهة نوازل لم يرد فيها نص أو رواية أو حديث. لم يكن هناك مؤسسة دينية-دنيوية للتشريع والتقاضى والتفويض، وحتى آراء الصحابة لم تكن ملزمة لبعضهم البعض، فكان ابن عباس يفتي برأي ويخالفه ابن عمر، أو تخالفهما عائشة. أي أن ظاهرة الاجتهاد البشري بدأت منذ وفاة النبي، وهي عملية استنباط لحكم. وقد كان إغلاق باب الاجتهاد قرارا بشريا ترافق ببذعة اسمها الفتوى، أي إصدار حكم "شرعي" على واقعة عينية وسؤال محدد. ولعل ابن تيمية يشكل بالفعل نقطة تحول فارقة في بنية الإيديولوجية المغلقة القائمة على زراعة يقينيات مطمئنة في مواجهة الشك والتفكير والبحث. هنا تبرز معالم الإيديولوجية التيمية ودورها في سجن النص وتكفير العقل، دورها في تحالف المقدس مع العنف، والدور الأهم في التعبئة لمواجهة المختلف أو العدو أو الخطر الخارجي: ما يمكن تسميته بآلية إدخال السلحفاة عناصرها الرخوة في القوقعة خوفا عليها من محيطها

المباشر وغير المباشر أو البحث عن يقين زائف في عالم مضطرب باللجوء إلى العنف.

العامل الأول والأساسي يكمن في طريقة "هندسة العقل السلفي" وآلية تعامله مع المعرفة القائمة على:

- تأليه الفهم البشري التاريخي: السلفية لا تكتفي بمرجعية القرآن والسنة، بل تفرض "فهم السلف الصالح" كمرجعية إجبارية مساوية للوحي. هذا التداخل جعل من التفسيرات البشرية التاريخية (التي كتبت في القرون الهجرية الأولى) نصوصاً مقدسة عابرة للزمان والمكان، مما جعل أي تجديد بدعة وضلال.
- اختزال الدين في "العقيدة والولاء" : تم تحويل الدين من منظومة أخلاقية وحضارية منفتحة إلى "قوائم من النواقض والعقائد الصارمة". في هذا النظام المعرفي، يُختزل الإنسان إلى "مدى مطابقته مع المذهب"، ويتحول "الاختلاف الفكري الطبيعي" إلى "خيانة عقيدة" تستوجب الإقصاء (التكفير).
- العداء البنيوي للعلوم الإنسانية : "لدينا كل شيء ولا حاجة لنا بأي بدعة"، هذه الجملة التي تتكرر عند رجال الدين في الجزيرة العربية وفي قم وفي كتب السلفية الجهادية، تقوم على أن كل الإجابات الوجودية والاجتماعية والسياسية موجودة في الماضي.

بالتالي، يتم التعامل مع الفلسفة، وعلم الاجتماع، والعلوم الإنسانية والتطبيقية الحديثة على أنها "غزو فكري" أو "بدع غربية" تهدد نقاء العقيدة.

- منذ التعبئة العامة من أجل "الجهاد في أفغانستان ضد الشيوعية والكفرة"، صار موضوع العلاقة بين المقدس والعنف يتقدم على كل ما عاشته الدول الإسلامية في حروب التحرير الوطنية من الاستعمار المباشر. صعد تعريف المقدس وفتوى الجهاد ليحل محل فكرة التحرر الوطني. وبعد أن كانت دولاً مثل المملكة العربية السعودية تواجه التيار القومي والاشتراكي بدعم التيارات السلفية والإسلام السياسي، أصبحت دول الخليج ومصر تصدر "المقاتلين" لأفغانستان، بعد الفتاوى الوهابية والسلفية التي جعلت القتال في أفغانستان واجباً شرعياً، (لم تعتبر الوهابية السعودية والقطرية الجهاد واجباً لتحرير القدس؟) من هنا لم تكن حملات إرسال المتطوعين فقط "لله بالله" بل كانت مدعومة مالياً من دول الخليج الوهابية بشكل لا سابق له وعسكرياً من الولايات المتحدة والنااتو.

شرعنة السلطة المطلقة

وجد الحكام عبر التاريخ (منذ العصر العباسي المتأخر وصولاً إلى الدول المعاصرة) في الفقه الحنبلي/السلفي أداة مثالية للاستقرار السياسي؛ فالسلفية تؤصل لـ"طاعة ولي الأمر وإن جلد ظهرك وسلب مالك" وحرمة الخروج عليه، مقابل منح المؤسسة الدينية وصاية كاملة على المجتمع والمجال الثقافي.

- الفتوى كسلح عسكري وضبط اجتماعي
- تحول التكفير والإقصاء من مجرد آراء فقهية إلى "مستندات قانونية" تبرر تصفية الخصوم السياسيين (كما حدث في بدايات الدولة السعودية الأولى عبر فتاوى النواقض²⁵ وتكفير البلديات

²⁵ النواقض حسب متن محمد بن عبد الوهاب عشرة كما جاء في رسالة "نواقض الإسلام":

1. الشرك في عبادة الله: مثل دعاء غير الله أو الذبح لغيره (كالجن أو القبور).
2. اتخاذ الوسائط: جعل وسائط بين الإنسان والله لدعائهم، وطلب الشفاعة منهم، والتوكل عليهم.
3. عدم تكفير المشركين: أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذهبهم وعقائدهم.
4. اعتقاد أن هدي غير النبي أكمل من هديه: أو أن حكم غيره (كالقوانين الوضعية) أفضل من حكمه.
5. بُغض شيء مما جاء به الرسول: حتى لو عمل المرء بهذا الشيء كأن يكره فريضة معينة.
6. الاستهزاء بالدين: السخرية من أي جزء من دين الرسول، أو ثوابه، أو عقابه.

المجاورة)، ثم تخوين النخب المثقفة والتنويرية، وأخيراً وليس
آخرًا، توظيف الفتوى في تعبئة الغوغاء لتحقيق مآرب سياسية
..

نشأت الحركة الوهابية في بيئة صحراوية رعوية منعزلة عن
الحواضر الثقافية الهامة (كالقاهرة، وبغداد، ودمشق) التي تميزت
بالتعددية المذهبية والتعايش الإنساني، من هنا ضيق الأفق
الثقافي والمعرفي وغياب المرونة والتسامح وفكرة التعايش
السلمي بين الجماعات. هذا إن لم يعتبر هذا التنوع تهديداً لا بد
من قمعة.

- استغلال الطفرة النفطية (عولمة الإقصاء): في النصف الثاني من
القرن العشرين، مُنحت هذه البنية البدوية المغلقة قوة مالية وإعلامية
هائلة (بسبب الفورة النفطية الغازية). تم ضخ مليارات الدولارات

-
7. السّحر: ويشمل فعله، أو الرضا به، واستخدامه للصرف والعطف.
 8. مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين: مناصرة غير المسلمين ومساعدتهم
ضد المسلمين.
 9. اعتقاد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد: كاعتقاد أن أحداً يمكنه
التعبد بغير الإسلام.
 10. الإعراض عن دين الله: لا يتعلمه الإنسان ولا يعمل به كلياً.

لطباعة كتيبات "النواقض" وفتاوى ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعلماء نجد، وتوزيعها مجاناً في أنحاء العالم الإسلامي، مما أدى إلى "سلفتة" التدين الشعبي العام وتدمير المدارس الفقهية التقليدية أو محاولات الإصلاح الديني المختلفة.

• وهم "الفرقة الناجية": يمنح الفكر السلفي المعتقد شعوراً هائلاً بالاستعلاء الأخلاقي واليقين المطلق. هو يؤمن بأنه ينتمي للـ"الفرقة الناجية" الوحيدة، بينما بقية البشرية (بما فيها مليارات المسلمين من المذاهب الأخرى) في ضلال. هذا التميز النفسي يعوض الفرد عن عهود الفشل المادي والسياسي في الواقع المعاش.

- تأليه الفهم البشري التاريخي: السلفية لا تكتفي بمرجعية القرآن والسنة، بل تفرض "فهم السلف الصالح" كمرجعية إجبارية مساوية للوحي. هذا التداخل جعل من التفسيرات البشرية التاريخية (التي كتبت في القرون الهجرية الأولى) نصوصاً مقدسة عابرة للزمان والمكان، مما يلغي إمكانية التجديد.
- اختزال الدين في "العقيدة والولاء": تم تحويل الدين من منظومة أخلاقية وحضارية منفتحة إلى "قوائم من النواقض والعقائد الصارمة". في هذا النظام المعرفي، يُختزل الإنسان في "مدى

مطابقته للمذهب"، ويتحول "الاختلاف الفكري الطبيعي" إلى "خيانة عقدية" تستوجب الإقصاء (التكفير).

- العداء البنيوي للعلوم الإنسانية: ترشح السلفية فكرة أن كل الإجابات الوجودية والاجتماعية والسياسية موجودة في الماضي. بالتالي، يتم التعامل مع الفلسفة، وعلم الاجتماع، والعلوم الإنسانية الحديثة على أنها "غزو فكري" أو "بدع غريبة" تهدد نقاء العقيدة. لم تكن السلفية لتتحول إلى ظاهرة مهيمنة لولا حاجة السلطة السياسية إليها عبر التاريخ:

- **شرعنة السلطة المطلقة** : وجد الحكام عبر التاريخ (منذ العصر العباسي المتأخر وصولاً إلى الدول المعاصرة) في الفقه الحنبلي/السلفي أداة مثالية للاستقرار السياسي؛ فالسلفية تؤصل لـ"طاعة ولي الأمر وإن جلد ظهرهك وسلب مالك" وحرمة الخروج عليه، مقابل منح المؤسسة الدينية وصاية كاملة على المجتمع والمجال الثقافي.

- **الفتوى كسلاح عسكري وضبط اجتماعي**: تحول التكفير والإقصاء من مجرد آراء فقهية إلى "مستندات قانونية" تبرر تصفية الخصوم السياسيين (كما حدث في بدايات الدولة السعودية الأولى عبر فتاوى النواقض وتكفير البلدان المجاورة)، ولاحقاً لتخوين النخب المثقفة والتنويرية.

محصلة الاستعصاء الحضاري

تكامل هذه العوامل (الجهل بالعلوم الحديثة، تحالف السلطة، التمويل الهائل، والتأزم النفسي) حوّل السلفية إلى "أيديولوجية شمولية" (Totalitarianism) قادرة على تجميد العقل المسلم. أصبحت الفتوى لغماً يعترض أي مجهود للتحديث؛ لأن التحديث يتطلب الإيمان بحرية الإنسان، والتعددية، والانتماء المشترك للإنسانية دون تمييز أو تفريق أو حقد، وهي قيم تتناقض بنيوياً مع أركان "الانغلاق والإقصاء السلفي".

ثنائية (العدل والطغيان) أم ثنائية (الكفر والإيمان)؟

من وجهة نظر الشيخ الفقيد عبد الله الحامد²⁶، يكمن أساس قوة الأمم والدول وضعفها، في ثنائية (العدل والطغيان) لا ثنائية (الكفر والإيمان). وأن الحكم يدوم مع العدل ولو كان كافراً، ويزول مع المظالم ولو كان إسلامياً، وهو يستند في ذلك إلى ابن تيمية والغساني وابن القيم فيما أفتوا وكتبوا. وإنما تبدأ المشكلة معهم، عندما يقولون "أن قول القائل أن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين كذب بإجماع المسلمين بل

²⁶الدكتور عبد الله الحامد، الإسلام والمجتمع المدني، المعهد الإسكندنافي لحقوق الإنسان / مؤسسة هيثم مناع، جنيف، الطبعة الثانية، آذار 2026.

هو كفر. فإن الإيمان بالله ورسوله، أهم من مسألة الإمامة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام"²⁷.

لا تكمن المشكلة المركزية هنا في أسبقية موضوع الإيمان على إقامة العدل، وإنما في مركزية مفهوم العدل في إقامة الحكم في القرآن الكريم أولاً وإطلاق الكرامة الإنسانية للبشر كافة (ولقد كرّمنا بني آدم) ثانياً، لذا لا تمييز بين الناس في الأحكام والحقوق في دولة وأمة. "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل (النساء 58).

لم ترد كلمة السياسة ولا أي لفظة مشتقة منها وصفاً أو فعلاً في القرآن الكريم، كذلك فإن تعبير الخليفة لم يرد البتة قبل وفاة الرسول محمد. من هنا ضبابية كل ما يتم الحديث فيه عن "الحاكمية" والحكم الإسلامي. الأمر الذي نلاحظه واضحاً في تأكيد غالبية أهل السنة والجماعة على الكف عن الخوض "في هذه الخلافات التي دارت بين الصحابة، والمطالبة باتباع قول عمر بن عبد العزيز: "تلك فتنة عصم الله منها سيوفنا فلنعصم منها ألسنتنا". لعل المثل الأكثر انتهازية في موقف من اعتبروا أنفسهم أهل "السنة

²⁷موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الرافضة، المنهاج 75/1-76.

والجماعة"، جواب ابن تيمية حين سؤل عن الخليفة يزيد بن معاوية : "لا نسبّه ولا نحبه". وكما هو معروف، لم يتفق السلفيون يوماً على الخروج على الإمام الظالم أو الفاسق "لما يترتب على ذلك من فتن وشُرور".

الحكمة والفلسفة ؟

في دراسته "الحكمة المصلوبة" يعطي سعود الفرحان مثلاً للنتائج الكارثية والطويلة الأمد لموقف السلفيين من المدارس العقلانية والفلسفية، موضحاً آثار هذا الموقف على الواقع العلمي والثقافي في السعودية، مُذكراً أنه بسبب هذا الموقف "توجد في السعودية قرابة عشر جامعات وعشرات الكليات لا تحوي بين جنباتها قسماً واحداً لدراسة الفلسفة، واعتماداً على نظرة ابن تيمية إلى الفلسفة التي تراها كفراً وضلالاً لم تتجرأ أي جامعة سعودية على فتح قسم للفلسفة في أي من كلياتها، ولا على تدريس مواد فلسفية، وإن مرّ ذكر الفلسفة عَرَضاً فينبغي وصفها بالكفر والضلّال، والتأكيد على أن تحكيم العقل هو طريق الهلاك"²⁸.

3 الحكمة المصلوبة: مدخل إلى موقف ابن تيمية من الفلسفة - سعود الفرحان

في 11 سبتمبر 2001، ظهرت السلفية التكفيرية في ثوبها الحقيقي، كمجموعات غير متماسكة أو منسجمة، تعيش من توظيف مشاعر المظلومية في ممارسات لا تختلف أبدا عن التوحش العولمي. الأمر الذي باعتبارها نتاج قراءات توظف الدين في استراتيجية العنف والسلطة. تعززت السلفية التكفيرية في قضية شكلت القطيعة مع النص القرآني الذي اعتبر من قتل نفسا بغير حق، كمن قتل البشرية جمعاء. فباسم الدين وردا على "المظالم الواقعة على المسلمين"، جرى الاعتداء على 3000 شخص من قوميات وأديان مختلفة يصعب عقليا وقانونيا اعتبارهم مذنبين سواء كان ذلك بالمعنى الأخلاقي أو السياسي أو الديني أو الجنائي. لست هنا لمناقشة موضوع إقامة محاكم عادلة أو جائزة بحق من قام بالجريمة، بل النتائج المباشرة وغير المباشرة على كل المسلمات والمسلمين في العالم من جريمة جسيمة حدثت باسمهم، مع كل ما ترتب عليها، من عولمة حالة الطوارئ وإعلان "الحرب على الإرهاب"... لم تكن العنجهية الأمريكية بحاجة إلى دافع لاستباحة البلدان الإسلامية بهذه القوة والوضوح.. لذا استثمرت في الجريمة لتعميم جرائمها وإعطاء عنجهية القوة والقتل، ورقة سماح معولمة لاستباحة الشعوب والبلدان.

الاعتقاد القادري (1018م - 409 هـ)

KADIRITE DOCTRINE

لأول مرة في تاريخ الإسلام تصدر وثيقة رسمية تحدد عقيدة المسلمين وتفرض العمل بمقتضى فصولها. وقد صدر هذا الاعتقاد في عهد الخليفة العباسي القادر بالله (381 . 442هـجري-991 . 1031م) وهذه باختصار الخلفية السياسية والدينية لهذا "الاعتقاد".

إن ما يميز هذه الفترة . النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس . هو سيطرة البويهيين الشيعة على بلاد فارس وعلى الخليفة في بغداد واستيلاء الفاطميين على مصر وفلسطين وسوريا والحرمين . وأما بلاد البحرين فكانت بيد القرامطة.

أما الحياة الدينية فقد تميزت بعودة الاعتزال إلى الوجود والنشاط العلني بعد هزيمته السياسية على يد الخليفة المتوكل (232 . 247هـ - 847 . 861م). وقد وجد يد المساعدة من بعض الحكام كالأمير عضد الدولة البويهي (338 . 372هـ - 949 . 983م) والوزير صاحب بن عباد. وقد شبه المؤرخون مدينة الري في ذلك

العهد ببغداد زمن المأمون، وابن عباد بالقاضي ابن أبي داود. أما الظاهرة الجديدة فهي حصول تقارب وتحالف بين الشيعة والمعتزلة. يقول الذهبي في ذلك: "إن الرفض والاعتزال تصادقا في حدود سنة 370 للهجرة (980م)، وتواخيا" (ميزان الاعتدال، ج2، ص 230) وكانت حلقة القاضي عبد الجبار (توفي في 415هـ - 1025م)، مجدد الاعتزال ورئيس المعتزلة في ذلك الوقت، تعد الكثير من مفكري الشيعة نخص بالذكر منهم الشريف المرتضى (35 . 436 هـ - 966 . 1045م) نقيب العلويين ببغداد.

أما الشيعة فقد قويت شوكتهم لمساندة البويهيين لهم ونشطوا نشاطا حثيثا أقلق الأوساط السنية ببغداد وخاصة الحنابلة منهم. ففي العاشر من شهر المحرم سنة 352هـ - 963م احتفل الشيعة لأول مرة بعاشوراء وجابوا شوارع بغداد ونظموا مسيرات شعبية كبيرة تتقدمها الطبول والمزامير وأشعلوا النيران ورقصوا حولها وصار ذلك لهم رسما وعادة في كل عاشوراء. وفي نفس السنة في 18 ذو الحجة ابتدعوا عيدا آخر هو الاحتفال بيوم غدير خم زاعمين أن الرسول عند عودته من حجة الوداع سنة 10 للهجرة توقف عند غدير خم وعهد لعلي بالخلافة من بعده. ورد أهل السنة

على هذه الاحتفالات الدعائية بتنظيم تظاهرات مماثلة، واحدة سموها زيارة زبير: تخليداً للذكرى مصعب بن زبير الذي حارب المختار الذي ثار باسم محمد بن الحنفية، وأخرى سموها يوم الغار تخليداً للذكرى لجوء الرسول وأبي بكر إلى الغار هرباً من مطارديهم أثناء هجرتهم من مكة إلى يثرب (المدينة). مؤكدين بذلك شرعية خلافة أبي بكر أمام مزاعم الشيعة. وكثيراً ما كانت هذه التظاهرات تنتهي بفتن دامية بين الفريقين.

ومن بين الفرق الإسلامية التي نشطت في ذلك العهد، المدرسة الأشعرية التي طورت كلاماً سنياً أثار ثائرة الحنابلة الذين كانوا أقوى فرق أهل السنة ببغداد آنذاك.

في هذه الظروف وتحت تأثير الحنابلة وضغط فقهاءهم، استتاب القادر بالله المبتدعة سنة 408 هـ - 1017م يقول ابن الجوزي:

“استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام وأخذ خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوه حلّ بهم في النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم” (المنتظم، ج7، ص287). وبعث الخليفة بأوامره

إلى الأمراء السنيين بهذا الشأن. ويضيف ابن الجوزي قائلاً:
“وامتثل يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود (الغرنوي) أمر
أمير المؤمنين واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من
خراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة (الشيعية) والإسماعيلية
والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر بلعنهم
على منابر المسلمين وإبعاد كل طائفة من أهل البدع وطردهم عن
ديارهم وصار ذلك سنة في الإسلام” (نفس المصدر).

ولكن الحنابلة لم يكتفوا بذلك وطالبوا الخليفة أن يكتب وثيقة
رسمية تقند مقالات “المبتدعة” وتقرر عقيدة أهل السنة والجماعة.
فكان أن استجاب القادر بالله إلى ذلك سنة 409 هـ - 1018م
حيث “قرئ يوم الخميس السابع عشر من المحرم في الموكب بدار
الخلافة كتاب بمذاهب السنة وقيل فيه: “من قال القرآن مخلوق
فهو كافر حلال الدم” (ابن الجوزي، مذكور) وقد قرئ هذا الكتاب
عدة مرات بعدها آخرها سنة 433 هـ - 1041 . 1042م أيام
الخليفة القائم بأمر الله. وقد أورده ابن الجوزي في المنتظم في
تاريخ الملوك والأمم في حوادث هذه السنة

(تقديم أعده الدكتور نجيب القصيبي لموسوعة الإمعان في
حقوق الإنسان)

الاعتقاد القادري

"إن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر، وهو:
يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل وحده لا شريك له،
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم
يكن له شريك في الملك، وهو ولم يزل وآخر لا يزال قادر على
كل شئ إذا أراد قال له كن فيكون، غني غير محتاج إلى شئ لا
إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، يطعم ولا يطعم، لا
يستوحش من وحدة ولا يأنس بشيء وهو الغني عن كل شئ، لا
تخلفه الدهور والأزمان وكيف تغيره الدهور والأزمان وهو خالق
الدهور والأزمان والليل والنهار والضوء والظلمة والسموات والأرض
وما فيها من أنواع الخلق والبر والبحر وما فيهما وكل شئ حي أو
موات أو جماد. كان ربنا وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه³ ضد
المجسمة والمشبهة والحشوية، فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش
لا لحاجته إليه فاستوى عليه كيف شاء وأراد لا استقرار راحة كما

يستريح الخلق³ ضد المجسمة والكرامية الذين يقولون أن الله جالس على العرش من جهة فوق،. وهو مدير السموات والأرضين ومدبر ما فيهما ومن في البر والبحر ولا مدبر غيره ولا حافظ سواه يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم والخلق كلهم عاجزون والملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون.

وهو القادر بقدرة والعالم بعلم أزلي غير مستفاد وهو السميع بسمع والعالم بعلم أزلي غير مستفاد وهو السميع بسمع والمبصر ببصر يعرف صفتها من نفسه لا يبلغ كنهها أحد من خلقه³ إثبات الصفات ضد المعطلة الذين يستعملون التأويل بشأنها: ضد فريق في الشيعة والإسماعيلية والمعتزلة والأشاعرة، متكلم بكلام لا بالة مخلوقة كالة المخلوقين، لا يوصف إلا بما وصف فيه نفسه أو وصفه به نبيه عليه السلام وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صورة حقيقية لا مجازية³ ضد المعتزلة والأشاعرة،. ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق تكلم به تكلما وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه فتلاه جبريل على محمد وتلاه محمد على أصحابه وتلاه أصحابه على الأمة ولم يصر بتلاوة المخلوقين

مخلوقا لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به فهو غير مخلوق فبكل حال متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا ومن قال أنه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه (الكلام موجه إلى المعتزلة والأشاعرة).

ويعلم أن الإيمان قول وعمل ونية، قول باللسان وعمل بالأركان والجوارح وتصديق به، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية³ ضد القائلين أن الإيمان هو التصديق، أو الإقرار الفرد، أن الأعمال لا تدخل في الإيمان، وهو أجزاء وشعب فأرفع أجزائه لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله ولا بماذا يختم له فذلك يقول: مؤمن إن شاء الله وأرجو أن أكون مؤمنا ولا يضره الاستثناء والرجاء ولا يكون بهما شاكا ولا مرتابا لأنه يريد بذلك ما هو مغيب عنه عن آخرته وخاتمته³ ضد من يقول أنه يجب على الله جزاء المحسنين وعقاب المذنبين،.

ويجب أن يحب الصحابة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم ويعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم³ ضد الشيعة الذين يقدمون علي وضد من يكفر عثمان ويشهد للعشرة بالجنة ويترحم على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سب عائشة فلا حظ له في الإسلام ولا يقول في معاوية إلا خيرا³ ضد الشيعة، ولا يدخل في شيء شجر بينهم ويترحم على جماعتهم، قال الله تعالى: (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخوتنا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل من قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وقال فيهم: (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين).

ولا يكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر وإن لم يجدها لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فمن تركها فقد كفر ولا يزال كافرا حتى يندم ويعيدها فإن مات قبل أن يندم ويعيده أو يضمّر أن يعيد لم يصل عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف. وسائر الأعمال لا يكفر

بتركها وإن يفسق حتى يجدها، ثم قال: هذا قول أهل السنة والجماعة الذي من تمسك به كان على الحق والمبين وعلى منهاج الدين والطريق الواضح ورجا به النجاة من النار ودخول الجنة إن شاء الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة" قيل لمن يا رسول الله قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامةهم. وقال عليه السلام: "أيما عبد جاءته موعظة من الله سيقت إليه. فإقبلها يشكر وإلا كانت حجة عليه والله ليزداد بها إثما ويزداد بها من الله سخطا جعلنا الله لآلائه من الشاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنة معتصمين وغفر لنا ولجميع المسلمين".

Contents

.....0	هيثم مناع
..... Error! Bookmark not defined.	التوتاليتارية المقدسة
.....2	منخل
.....15	الشمولية المقدسة!!!
.....18	المطاوعة، أو "الشمولية المقدسة" في الحياة اليومية
.....30	الهيمنة العقيدية
.....38	توتاليتارية
.....38	إسهام في نقد الإيديولوجية الإسلامية
.....72	نهاية الأسطورة السلفية
.....85	شرعنة السلطة المطلقة
.....89	محصلة الاستعصاء الحضاري
.....89	ثنائية (العدل والطغيان) أم ثنائية (الكفر والإيمان)؟
.....91	الحكمة والفلسفة ؟
.....93	ملحق

هيثم مناع مفكر ولد في درعا-سوريا، ناشط دولي في الحقوق الإنسانية منذ 48 عاما. درس الطب والأنثروبولوجيا والمعالجات النفسية في سوريا وفرنسا. عرف بنضاله الميداني وبعثات التحقيق في مناطق الصراع. شغل مواقع قيادية في منظمات عربية ودولية لحقوق الإنسان ولعب دورا هاما في إنضاج مفهوم الجيل الثالث لحقوق الإنسان وحقوق التضامن. صدر له وأشرف على أكثر من ستين كتابا وبحثا بالعربية والفرنسية والإنجليزية من أبرزها موسوعة "الإمعان في حقوق الإنسان" في ثلاثة مجلدات، "مستقبل حقوق الإنسان"، "أطلس اللا عنف" و "بناء المواطنة". يرأس "المعهد الإسكندنافي لحقوق الإنسان/مؤسسة هيثم مناع" منذ تأسيسه في 2009.